أستروفيليا

عنوان الكتاب: أستروفيليا

المؤلف: ناصري سندس

الناشر: ماروشكا للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: ديسمبر ٢٠٢٠ م

ردمك: ٣-٣-٩٦٨٧-٩٩٣١-٩٧٨

المدير العام: بن وارث أمال

لمراسلة الدار:

إيمايل: marouchka.edition@gmail.com

هاتف: +٢١٣٦٩٧٧١٧٠٥٠

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر، وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن منه.

أستروفيليا

رواية

ناصري سندس

دار أوشى
للنشر والتوزيع

مقدمة :

لا أجيد كتابة المقدمات لذا سأفسح لكم المجال بدلا عني، إليكم صفحات بيضاء لتكتبوا عما أشعل فتيل حماستكم وسرق فضولكم.

إهداء:

إلى من شجعتني لكتابة الكلمة الأولى...

إلى من قتلوا حلمها بأن تصير كاتبة.

رفعت يدي أعد النجوم، عند النجمة التاسعة والعشرين أوقفني،

قال: لا تعديها ستسقط في عينيك.

فقلت: إذن هل سأصبح نجمة؟

هل الذين ماتوا قد ماتوا؟

١

إذا طُرق بابك بعد منتصف الليل لا تفتحه، إنه اليأس.

«بقيت أناجي الوحدة الموحشة في منزل الغابة المنعزل بين الأشجار، تماما كما كنت أفعل في أيام الماضي الحزين قبل أن أتغير للأفضل (ربما هذا ما ظنته نفسي التي ذاقت طعم الأمل لأول مرة في حياتها) وها أنا أعود لنقطة الصفر من جديد أو تحت الصفر.

تساقط الأمطار بدون انقطاع وتضارب الرياح مع الأشجار أضفى جوا مرعبا على المكان فاقشعر له بدني، شعرت كما لو أن السماء تبكي معي والرياح تنادي على قلبي ليخالجها بما خبأه عن الآخرين، لن يتمكن أحد من إيجادي ... رغم ذلك هل يوجد من يبحث عني الآن؟ أنا وهو فقط من نعرف بشأن هذا المكان البعيد عن أعين البشر الخبيثة... لكنه اختفى لذا أنا أنيسة الوحشة أخيرا مثلما تمنيت أن أكون، فلا بأس أن أستيقظ ولا أجد رسالة منه يخبرني فيها أنه اشتاق لي فالوحدة جميلة أحيانا، لكن كثرة تظاهري جعلتني أضعف مع الوقت، فجزء مني تمنى العكس ...

حاولت قمعه لكن قلبي تغلب على عقلي، ماذا لو أنتظر ثوان قليلة أو دقائق لأرى ظله عند بابي ... أراه يأتي ناحيتي مسرعا وهو يلهث مثلما فعل في كل مرة تأخر فيها عن موعد لنا، فيخبرني أنني أستحق العيش ولن يختفي ثم يعدني وعودا وردية، أنه معي ولن يترك الوحدة تنال مني، أننا سنصل للنهاية السعيدة معا، تلك السعادة التي بدأنا برسمها في أول لقاء لنا بالمستشفى، النقطة واحد في حياتي.

لكن ... تمر دقائق أخرى ولا يتغير شيء، أحدق بالساعة القديمة المعلقة بالجدار المقابل لي، فأحس أن عقاربها لا تتحرك أبدا ... هل لهذا جدتي حاولت رميها؟ قالت حينها أنها سئمت من مراقبة الوقت، كم ساعة في الدقيقة يا ترى؟

راقبت مقبض الباب حتى شردت إلى عالمي الخاص ... العالم الذي أنا به بطلة الرواية، صرت أطيل النظر في كل التفاصيل، أجلس كالطفل الذي انتظر والده بعدما وعده بإحضار الحلوى، لكنه لم يعد، أين الحلوى خاصتي؟

أحلت بنظري إلى وشاحي الأحمر المعلق بإحكام في السقف الخشبي للمنزل، لماذا أدقق النظر بالأشياء كثيرا مؤخرا؟ فكرت ... لو يظهر هنا سأخنقه بدل قتل نفسي، هذا ما يستحقه، لكنه لم يأت فتتدفق مشاعري أكثر، الغضب ... الحقد ... الكراهية أو ربما الحب؟ لا يمكنني حتى فهم نفسي، كيف يمكن إنقاذ شخص يعجز عن تفسير ما يشعر به؟ كيف يمكن لشخص تم قتل روحه ودفنها بين جثث الرعب والأسى أن ينجو؟ شخص لم تشفى جراحه مهما حاول تضميدها ليس لديه ما يخسره، لن يخاف من الموت لأنه مات بالفعل مائة مرة، ليس موتي الأول، فقلبي مات منذ زمن ولم يتبق إلا جسدي الفارغ.

نهضت بخطى متثاقلة أجر معي بطانيتي، لون أمي المفضل الأحمر، و أنا كذلك ... الشيء الوحيد المشترك بيننا، حرصت على اقتناء كل ما هو أحمر لكن لا يمكنني التخلي عن بطانيتي الرمادية التي دائما ما ألتف فيها عندما أكتب بالشتاء، التففت فيها أحاول الحصول على القليل من الدفء في آخر لحظاتي، الدفء الذي حرمت منه طوال حياتي، اتجهت إلى الكرسي القابع بجانب المدفأة، كانت عليه إحدى رواياتي السابقة «تحت الطاولة» فألقيت بها إلى النار مثلما فعل البطل برسائل حبيبته فيها ... انتبهت أن كل شخصيات رواياتي جعلتها تفعل أشياء لطالما تمنيت فعلها لذا فالكتابة عنها جعلتني أشعر بالراحة ومنحتني شعورا مزيفا بأني حققت أحلامي.

أخذت الكرسي أجره لكي أحدث صوتا، لعل الجيران يأتون للشكوى ... لكني تذكرت ... لا أملك جيرانا ... لا أحد سيسمع صوت صرير قلبي هنا، حفيف الأشجار وحده من رد على صرخاتي الصامتة، حتى الأمطار توقفت عن النزول كأنها تخبرني «هيا بنا حان الوقت».

وضعت الكرسي أسفل وشاحي المعلق وصعدت عليه لأهيئ نفسي، جسمي يرتجف، أسوء لحظات حياتي تمر بين عيني ... جنازة أبي في شتائي العشرين ... أول شجار مع أدهم ... فشل روايتي الأولى ... انتحار ضحى ... مرض أمي ومنزل الغابة ثم أنا وحيدة من جديد، فشلت في استحضار الذكريات السعيدة كل ما أفكر به سوداوي وقاتم.

فقدت أنفاسي قبل أن أضع الحبل على رقبتي حتى، عيناي غارقتان في الدموع، حلقي يؤلمني ... أمسكت طرف ثوبي بشدة ... لبست

ثوب أمي المفضل، أبيض قصير بشريط أسود على العنق ... في الواقع بدأت باكتشاف أوجه شبه أخرى بيننا، مثلما فضلت البطانية الرمادية هي فضلت الثوب الأبيض على غرار الفساتين الحمراء، لبسته في أول موعد مع أدهم حينها قال: «اللون الأبيض لا يناسبك» ... لم يفهم أن الفستان كان اعترافا أني تغيرت من أجله، تنازلت عن جزء من هويتي لأبدو أجمل في عينيه، تخليت عن اللون الأحمر.

يقال أن المنتحرين يندمون آخر اللحظات، هل سأفعل؟ ... تذكرت شيئا ما، لم أكتب ملاحظة أخيرة ... رسالة انتحار أو اتخذته عذرا لانتظار أدهم قليلا لعله يمر على بابي، نزلت بسرعة من على الكرسي وصعدت لمكتبي، حيث وضعت أوراقا لروايتي الأخيرة التي لم تنشر بعد كتبت فيها آخر وأصدق لحظات في حياتي بخط يدي، وأضفت ملاحظة ... أدهم إن كنت تقرأ كلامي فيعني أنك تأخرت خطوة، فات الأوان لكن تذكر لقد انتظرتك ... فلتنشر روايتي من أجلي ليصل للعالم حزن فؤادي.

أنا انتقمت منك، فلتتحمل مسؤولية انتحاري لأنك لم تأت في الوقت المناسب، لو لم تتركني يومها هل كنت لأفكر بفعل هذا؟ كنت القطرة التي أفاضت كأسي.

وأضفت إلى نهاية الرواية بيد مرتجفة ودموعي تسبق الحبر إلى الورقة، إلى القراء ... إن كانت روايتي بين أيديكم فلتعلموا ... لا وجود لي بعد الآن، شكرا على دعمكم ... اسمي رؤى، الراء للرعب والألفين للألم والأسى»

كانت هذه آخر صفحات من رواية كاتبتي المفضلة، المدعوة رؤى... أنهيتها مع آخر رشفة من الشاي وأنا أكاد أبكي، وضعت الرواية على المنضدة التي بجانبي، صببت كأس شاي آخر ورحت أنظر من النافذة رأيت أطفال الحي وهم يلعبون بمرح مع بعض ويتشاجرون بين حين وآخر ولو أني كنت أراهم كالنمل لكن من الواضح أنهم يتشاجرون.

رؤى لم تحظَ بطفولة سعيدة، هي لم تجرب شعور الشجار مع زميلك في المقعد، لم تعرف ما الذي يعنيه أن تشارك وجبتك المفضلة مع صديقك المقرب، لم تذهب في رحلة مدرسية من قبل، لم يسبق أن كتبت رسالة حب طفولية، والدها لم يحب أمها يوما وأثر هذا بدوره في نفسيتها كثيرا، جعلها تفقد الثقة بالحب منذ الصغر.

آخر رواياتها عبارة عن رسالة انتحار طويلة، رواية مقتبسة من قصتها الحقيقية ... رواية من قلب الظلام، رواية طفلة عاشت بالكثير من الأحلام لكنها لم تحقق منها إلا القليل، فقررت ترك كل حلم خلفها وإنهاء حياتها بعيدا عن البشر.

رؤى روائية مجهولة الهوية، لا نعرف إن كان اسمها الحقيقي فالكثير من الشائعات تقول أنه اسم مستعار للتظليل عن الحقيقة، تعرفت عليها لأول مرة عندما وجدت إحدى رواياتها على مكتب أختي الكبرى

كانت ثالث رواية تنشرها التي تحدثت عنها في آخر صفحات رواياتها بالضبط «تحت الطاولة» عن فتى يهاب المرتفعات وفتاة متسلقة جبال يعجبان ببعض، فالحب لا يعرف التناقض، هو فقط يقصد قلوب من يشاء بالرغم من مخاوفهم، خلفياتهم أو توجهاتهم، هو أيضا لا يعرف المكان المناسب ليربط شخصين، فبطلي الرواية التقيا تحت طاولة، غريب صحيح؟

ومن هناك أعجبت بها، رغم أنني لم أكن من هواة المطالعة إلا أني قرأت كل كتبها التي أدخلتني إلى عالم القراءة الشافي من الأحزان، لكن روايتها الأخيرة شيء آخر لم أبك يوما بسبب رواية لكن هناك ما شدني اليوم، هل لأن اسمي أدهم كذلك؟ أو محاولتي للانتحار من قبل؟ الصدفة أخافتني كثيرا وجعلتني أرغب في الالتقاء بأدهم الحقيقي ورؤى.

هي انتهت بكتابة رواية عن نفسها الكئيبة التي لم نعلم بشأنها من قبل، حياتها، كيف بدأت الكتابة ووفاة والدها، ترددها على عيادات الطب النفسي والكثير من تفاصيلها الشخصية التي كانت تخفيها لوقت طويل عن قرائها، ما أدهشني وأثار حيرتي صفحتها الأخيرة، أشك في مصداقيتها، هل انتحرت حقا؟ أم أنها فقط رغبت في الاعتزال بطريقة فريدة لم يسبق لكاتب فعلها؟

ما أنا متأكد منه هو موتي من الفضول إن لم أتعرف عليها شخصيا، قرأت جميع رواياتها ما عدا روايتها الأولى الفاشلة، بحثت عنها في كل مكان دون جدوى، لم تذكر عنوانها في كتابها الأخير فصعب إيجادها، على الأرجح نشرتها باسمها الحقيقي.

كتبت العديد من أصناف الروايات، روايات بوليسية لا تخلو من

الإثارة تجعلك تنهيها في جلسة واحدة، وبعض الروايات الرومانسية كالرواية التي نشرتها عبارة عن مذكرات كتبتهم امرأة خانت زوجها، ولم ينسى الرعب مكانه من رواياتها كذلك فكتبت روايات تستحق تحويلها إلى أفلام، أما قصتها الأخيرة عنوانها «أنا» تعبيرا عن نفسها، عن حياتها البائسة، أفضل ما مرت به لقاؤها بالطبيب أدهم لكنهما انفصلا ... لم يتحمل أمراضها النفسية ولم يطق صبرا مزاجها الحاد، في الواقع أنا أيضا طبيب، أرعبني في البداية شبهي الكثير به في الشخصية والاسم والمهنة، لكنها لم تصف شكله أبدا، قالت أنها تغار عليه حتى من وصف جميل عنه تقرأه امرأة أخرى ... لكنه تركها في النهاية.

قررت البحث عنها وإيجادها، قد أعثر على منزلها أو قبرها لكن لا يهم ذلك، سأسعى لمعرفة الحقيقة وأعرف الشخص المناسب تماما لمساعدتي للوصول لها ... أختي الكبرى علياء.

علياء أختي غير الشقيقة، توفيت والدتها «جميلة» بالسرطان منذ سنوات طويلة قبل أن أولد أنا، أبي لم يقدر على رعايتها بنفسه، كانت علياء بعمر الثانية فقط حينها، فتزوج بعدها بسنة من والدتي وحظيا بي، هي تكبرني بحوالي أربع سنوات، منذ الصغر كنا نتفق بشكل جيد أكثر من أي إخوة أشقاء، كنا أصدقاء صنعهم الزمن من أجل بعض فقضينا معظم الوقت معا.

رغم أنها أحبت والدتي كثيرا لكنها لم تنادها يوما بأمي، لطالما نادتها باسمها الحقيقي «عزيزة» فعلياء منذ الصغر تم إخبارها بقصة والدتها، لم يشأ والدنا الانتظار حتى تكبر لإخبارها كي لا تدخل في صدمة، لكنها لم تذكر يوما أنها اشتاقت لوالدتها أو أنها تتمنى لو ما زالت حية، عندما يسألها شخص ما عن أمها هي دائما ما تردد: «ما الذي تقصده؟

عزيزة هي أمي»، هي أحبتها بصدق وأكثر من أي حب طفلة لأمها رغم أنها لم تكن تميل لإظهار ذلك، في سن معينة أصبحت تنادي والدنا باسمه الحقيقي كذلك، عاملته كصديق أكثر من أب، عمليا هي صديقة الجميع.

أرسلت رسالة لعلياء وأخبرتها «لي عمل لك»، بيتها ليس بالبعيد عني، يفصل بيت كبير بين عمارتينا، منذ سنوات انتقلت أنا وهي للعيش مستقلين، انتقالنا للحي السكني نفسه كان وليد الصدفة، لكنه سهل الأمور على والدتي لزيارتنا، فهي استمرت بالقلق علينا بعد انتقالنا، لطالما كنا صغارا في أعينها ولو كبرنا.

دقائق وأرى علياء عبر النافذة تشق الطريق الرئيسي لتصل لعمارتي، أحد أبناء صاحب البيت الكبير يحدق فيها عبر شرفته كالعادة أخبرتها عنه آلاف المرات لكنها ترى أنني أبالغ ... كادت تصدمها سيارة فبدأت بالشجار رغم كونها المخطئة، ولدت لتخرق إشارات المرور ثم لعبت الكرة قليلا مع أطفال الحي، وضعت يدي على وجهي متحسرا عليها، هي لا تكبر أبدا ... لهذا لم تتزوج، كل ما فاتحتها في أمر الزواج تشرح لي كونها ليست ضد الزواج وإنما خائفة من الاختيار الخطأ فتهدم كل ما حاولت بناءه في حياتها.

دقائق أخرى وهي عند بابي تكاد تحرق الجرس، ففتحت الباب لها.

- أنت هنا.

- ما الذي يؤخرني إذا شممت رائحة تحقيق؟

- فلتجلسي يا كلب التحقيق.

- أنت لا تحترمني مؤخرا يا هذا.

علياء نفسها بتسريحة الكعكة التي لم تغيرها منذ الإعدادية وسروال الجينز الذي لن تجد مشكلة في النوم به، كانت قد رفضت من قبل طلبي لإيجاد رؤى بحجة كونها مشغولة بالعمل وما إلى ذلك، هذه المرة ستقبل بلا شك لأنها موقوفة عن العمل مؤقتا لضربها مشتبها به من الغضب رغم استمرارها بالقول «دفاع عن النفس» إلا أنني أثق أنه استفزها فحطمت وجهه.

لابد من شعورها بالملل الآن، هي فتاة قوية لن تتردد لحظة واحدة بضربك إن قلت لها «لست أنثوية» لتثبت لك صحة كلامك.

– رؤى مجددا؟

– هيا .. إنها قضية كبيرة ... الكاتبة انتحرت.

– سمعت بذلك ... هل تصدقها؟

قاطعت كلامها الساخر بنظراتي الغاضبة فصمتت للحظات لأنها عرفت مدى جديتي بشأن إيجاد رؤى، ثم أمرتني بإعطائها الرواية لقراءتها أولا لعلها تجد دليلا بين ثناياها.

أعطيتها إياها وطلبت مني منحها بعض الوقت للتحقيق جيدا.

ثم لم أرها بعد ذلك لمدة شهر...

٢

لا تنظر بعيدا، أنظر حولك الحل أمامك تماما.

مر زمن ليس بالقصير منذ أن وعدتني علياء بالعثور على رؤى لكنها قطعت اتصالاتها بي فجأة دون سابق إنذار على غير عادتها ... ليس معي فقط بل الحال نفسه مع والدينا، ربما تحقق في القضية بنفسها فهي تميل لعزل نفسها عند التركيز على القضايا، رغم إلحاحي عليها بالمساعدة ها هي تطفئ حماسي باختفائها.

على أي حال كنت مشغولا حد الاختناق بالمستشفى ... الكثير من المرضى هذا الشهر، كونك طبيبا جراحا يعني أن تودع شيئا اسمه وقت الفراغ، بالكاد أملك القليل من الساعات في الأسبوع للمطالعة أو الاسترخاء على أريكتي وأنا أشاهد مسلسلي الأسبوعي المفضل الذي فاتتني الكثير من الحلقات منه هذا الشهر وحرق علي صديقي الأحداث.

خرجت من المستشفى منهكا في الصباح بعد العمل بمناوبة ليلية، أطول ليلة في حياتي أحسست أنها لن تنتهي، كدت أجزم أني سأموت

من النعاس قبل بزوغ الفجر، كان علي النوم في النهار بدل وعد نفسي عند بداية كل حلقة من المسلسل أنها ستكون الأخيرة.

لم يكن المستشفى بالبعيد عن منزلي، أذهب سيرا على الأقدام وأندم في كل مرة عند عودتي على عدم ذهابي بالسيارة لأني أفقد الإحساس برجلي.

وصلت للعمارة فوجدت المصعد معطلا ... آخر ما توقعته في صباحي البائس هذا رؤية عبارة «استخدم السلالم من فضلك» معلقة أمامي، صعدت وأنا أكاد أفقد أنفاسي حتى الطابق الرابع عشر أصبحت رؤيتي ضبابية مع كل خطوة أصعدها، خسرت كيلوغرامين بسببهم ... من يريد خسارة الوزن مرحب به في سلالم عمارتنا، لعنت حظي والمصعد كثيرا، تمنيت لو لدي قدرات خارقة تمكنني من التنقل عبر الأماكن دون تعب.

ما إن وصلت للمنزل حتى كاد قلبي أن يخرج من مكانه دخلت بسرعة شربت قارورة ماء واتجهت مباشرة للحمام، أفضل شعور الحصول على حمام دافئ بعد يوم عمل مرهق ترتخي فيه عضلاتك وتنشرح نفسك كأنك ولدت من جديد، ذهبت بعدها للمطبخ وأنا أجفف شعري بالمنشفة، لأملئ معدتي قبل الخلود إلى النوم.

لاحظت وجود إبريق الحليب وصندوق طعام فوق الطاولة، لا أذكر وضعي له هناك ولم ألحظ وجوده عند دخولي من قبل، فتحته فوجدت به كعكا إسفنجيا ... أليس هذا كعك علياء المفضل؟ ... مهلا لا يمكن...

أسرعت لغرفة الجلوس مندفعا لأجد علياء تجلس بكل ثقة على أريكتي تحسب نفسها ملكة على عرش! تضع رجلا فوق رجل وتحمل

كأس حليب بالشوكولاتة ... حتى أنها تشرب في كوبي المفضل، بقيت تحدق بالفراغ ثم نظرت لي ورسمت ابتسامة مخيفة على وجهها حتى اقشعر بدني ... أفزعتني بشدة ... كنت سأصنف الموقف كلقطة من فيلم رعب لولا حملها لكأس الحليب بشكل جدي الذي غير الوضع إلى موقف كوميدي.

- كيف دخلتي؟

- من الباب

- حسنا أعرف ... من الواضح أنك لم تدخلي من نافذة في الطابق الرابع عش...

قبل أن أكمل جملتي أخرجت بعض الأوراق من حقيبة ظهرها ومنحتنهم لي دون أن تتوقف عن الابتسام قائلة: فلتنظر إلى إنجازات أختك ... لا يمكنك أن تجد مثيلا لي في العالم.

أمسكتهم عنها وألقيت نظرة خاطفة عليهم، سيرة ذاتية كاملة عن رؤى ... زمان ومكان الميلاد وحتى اسم الابتدائية التي درست بها والعديد من التفاصيل الأخرى بعضها ذكر في الرواية بالفعل والأخرى معلومات جديدة لم يسبق أن سمعت بها.

نسيت التعب تماما وجلست أقلب الأوراق ونزعت لها الكوب فرمقتني بنظراتها التي تعبر عن انزعاجها الشديد مني، لكن كل ما كنت أريده هو تفسير وشرح كيف ومتى وجدت كل هذا؟ هل كل ما هو مكتوب هنا موثوق؟ زادت حدة نظراتها لي لأنها أحست بشكي في مصداقية معلوماتها وهذا من أكثر ما تبغضه، نهضت وجلبت لوح سبورة متنقل أدرس عليه عادة وقامت بوضعه أمامي لكي تشرح عليه كيف توصلت للحقيقة ...

– حسنا فلنتحدث في الأهم قرأت الرواية حوالي خمس مرات، أنا تقريبا حفظتها، وكما توقعت هي صندوق غني بالأدلة فلتتابع معي ... لو قاطعتني لن أخبرك بشيء، حين أنتهي من الشرح بمكنك الإدلاء بتعليقاتك، تعرف كم أكره أن تتم مقاطعتي أكثر من سرقة طعامي ... أولا اسمها الحقيقي ليس رؤى بل رغد ... حسنا ستقول كيف عرفت ذلك؟

حملت قلما وكتبت حروف الهجاء على السبورة ثم قامت بترقيمهم بالترتيب، كنت محتارا أي نوع من دروس الابتدائية ستعلمني.

– شد انتباهي رسالة انتحارها وعرفت أنها ليست عادية فاستنتجت أن وراءها سرا، بعد عدة نظريات وتحليلات تمكنت من حل شفرتها، هي قالت الراء للرعب وقد ذكرت كلمة الرعب عشر مرات في الرواية، وترتيب حرف الراء في الأبجدية هو العاشر، الألف الأولى للألم وقد ذكرت الكلمة تسع عشرة مرة الموافقة لحرف الغين، الألف الأخيرة للأسى وقد ذكرته ثماني مرات وحرف الدال ترتيبه الثامن، فإذا جمعنا الحروف المشكلة الثلاثة بالترتيب الجديد حسب الأرقام سيتشكل لنا اسم رغد أي اسمها الحقيقي، تأكدت من صحة نظريتي أثناء قولها في الفصل الأول أن حياتها عكس اسمها، فرغد معناه رفاهية العيش ليس كحياتها الكئيبة، هي حقا كاتبة عبقرية كونها استطاعت التلاعب بالكلمات هكذا وكتابتها بدقة، كان عد الكلمات متعبا لكن جيد أن جهدي لم يذهب هباء فلم أكن متأكدة من صحة نظريتي في البداية، مع ذلك رسالة انتحارها لا ترمز لاسمها وحسب بل رمزت لحياتها أيضا، هي قصدت أن حياتها كرغد مرعبة مؤلمة ومليئة بالأسى، هي جمعت المعنى في شفرة باسمها بطريقة ذكية.

– أختي أعترف بقدرتك الخارقة في التحقيق ...

– هل تريد مني التوقف؟ دعني أصل للجزء الأفضل ثم امدحني مثلما تشاء ... لن تصدق الصدفة الغريبة ... هي تسكن في البلدة المجاورة لنا فقط، دعني أشرح لك كيف عرفت هذا الجزء، يبدو أن رغد كانت قريبة منا للغاية طوال الوقت لكن لم ننتبه، هل تذكر المسابقة التي قمت بإرسالها لك لربح مجموعة من الكتب عبر قرعة؟ تلك التي تم تنظيمها على إحدى صفحات جامعي الكتب ... حسنا لتفهم بشكل جيد ما أحاول الوصول إليه، في الفصل الخامس عشر ذكرت الكاتبة أنها ربحت مسابقة للكتب عبر قرعة من بين المئات على إحدى الصفحات، فظنت أن كل حظها في الحياة استنزفته المسابقة حتى أنها ذكرت الكتب التي ربحتها ومن بينها رواية لها كذلك فضحكت على نفسها واحتارت ما إن كانت ستصنف هذا حظا جيدا أم عثرا، كانت العناوين التي ذكرتها مألوفة لنا ...

كتبت في اللوح أسماء الكتب التي ذكرتها رؤى، بعد تدقيق وتفكير بدأت ذاكرتي تعود تدريجيا ... كيف فاتني ذلك؟ كان يزيد حماسي ويخفق قلبي أسرع مع كل كلمة تخبرني بها عنها وأتحمس بشكل زائد، بينما علياء تتعمد الصمت للحظات كأنها تفكر ثم تكمل كلامها لتستفزني، كأنه الهدوء قبل العاصفة محذرة لي أن أنتظر فقط لتكشف عن المزيد.

– من النظرة التي تعلو وجهك لا بد أنك تفكر فيما فكرت به، نعم... العناوين نفسها للمسابقة التي أرسلتها لك منذ أشهر وتجاهلتها لأنك تملك بالفعل الروايات المقدمة للرابح، أسرعت للبحث عن صفحة المسابقة بعد جهد جهيد عثرت عليها، لكن المسابقة مر عليها حوالي

عام لذا كان من الصعب إيجاد المنشور عن الرابح وخشيت أنه لا يوجد من الأساس أو أنهم لم يذكروا حساب الرابح فأصل لنهاية مسدودة، لذا أمضيت اليوم بطوله أفتش، تعبت عيناي وانتهى مخزون القهوة لدي، كانت عملية بحث مستنزفة لطاقتي حقا وعندما كدت أستسلم وأسقط نائمة وجدته أخيرا، بمجرد وقوع نظري على المنشور طار النعاس بعيدا، الرابحة اسمها رغد لا يمكنني أن أصف لك مقدار شعوري بالنصر حينها، من حسن حظنا أنهم ذكروا حسابها ولم يذهب بحثي هباء منثورا، لكنه خاص أرسلت لها طلب متابعة فلم تقبلني، لم أستطع الانتظار لذا ببساطة طلبت من صديق لي باختراق حسابها ...

– ما الذي فعلته! هل أصابك الجنون؟ ألا تدركين أنها جريمة إلكترونية؟ لم يكن عليك الذهاب لهذا الحد.

– مجنونة؟ وألم أفعل هذا لأجلك؟ إن كنت تريد معرفة المزيد فلتصمت وتدعني أكمل ... (تنهدت بعمق ثم واصلت حديثها) حصلت على حسابها واكتشفت أنها لم تنتحر وما زالت تتفاعل على صفحتها، نشرت بعض الصور، لكنها وحيدة لا تتكلم مع أحد حاليا، صندوق رسائلها فارغ منذ مدة، فيه عدد قليل من الأشخاص، لكن بعد قراءة كل رسائلها القديمة وجدت أنها أخبرت بعض المعارف بالمستشفى الذي كانت تعالج فيه أمها المريضة، وهو يبعد عنا حوالي ساعة فقط! لذا بمعرفة المستشفى ومن بعض الصور تأكدت من موقع سكنها، لكن ما أثار اهتمامي وفضولي هو لا وجود لأدهم في حسابها، هل قام بحظرها بعد انفصالهما أو بعدما نشرت حياتها الخاصة؟ لأكون صريحة انعدام وجود أدهم من حسابها أثار اهتمامي أكثر من سبب إعلانها انتحارها بينما هي ما زالت حية، وثاني شيء مثير للاهتمام لا أثر لصورة لها، للأسف لم أتمكن من الوصول لهذا القدر. وفي النهاية

عندما وصلت لاسمها الكامل الحقيقي وتاريخ ميلادها من حسابها طلبت مساعدة من بعض الوسائط فوجدت كل ما تبقى ولخصته لك في الأوراق التي تحملها.

ثم نزعت من يدي كوب حليبها مجددا لكنه كان فارغا، فذهبت للمطبخ لتعد المزيد، في هذه اللحظات قمت بقراءة ما لخصته علياء، اسمها رغد، ولدت في الفاتح من ماي هي أكبر مني بسنة، فرحت لذلك لأني بمرحلة ما شككت في كونها امرأة كبيرة في السن أو متزوجة، خمنت حتى احتمالية كونها رجلا كنت لأصاب بصدمة لو أن شكوكي كانت صحيحة، هي توقفت عن دراستها الجامعية في عامها الثاني، والدها «علي» توفي في نفس عام توقفها عن الدراسة ربما كان السبب في انقطاعها عن الدراسة.

ما إن كدت أنتهي من القراءة رجعت علياء وهي تجر برجليها الشبشب خاصتي الكبير عليها، تحمل كوبها بيد وكعكا باليد الأخرى، أكاد أجزم أنه بيتها وليس بيتي، هي تشعر بالراحة أكثر مني هنا، كأنها صاحبة المنزل وأنا الضيف.

– فلنذهب لزيارتها الآن.

كادت علياء تسقط ما بيدها من كلماتي، واختنقت من الطعام.

– لما لا نذهب لزيارة مستشفى المجانين أحسن؟ كيف نذهب لزيارتها بهذه البساطة؟ ألا تبدو مريضة نفسيا من روايتها؟ وما الذي ستخبرها به عند زيارتها؟ مرحبا أنا معجب أريد توقيعا على رسالة انتحارك أم ماذا؟!

– هوني عليك توشكين على الانفجار، وجهك أحمر ... فلتبتلعي ما في فمك أولا وامسكي كأسك جيدا لست أنت من سينظف الأرضية

لاحقا ... تكلمي بهدوء، هيا حققي أمنية أخيك الوحيدة، هل من خطة؟

جلست بجانبي ووضعت طعامها على المنضدة، سكتت قليلا، ها هي تستفزني مجددا... ثم ابتسمت لي وأخبرتني بثقة:

– بالطبع أنا سيدة الخطط، لا أبدأ عملا إلا وكنت متأكدة من إنهائه، إليك خطتي ... فلنذهب لزيارتها بالمنزل على أساس أنني محققة، سأخبرها أن أحد القراء قام بالشكوى من احتمالية انتحارها لذا قمنا ببعض التحريات هنا وهناك ولا نستطيع كشف تفاصيل عنه، حسنا هذه ليست كذبة إذا حللنا الأمر فأنت من اشتكيت لي، أنا أعمل مع الشرطة أعتقد أنها الحقيقة نوعا ما وستذهب معي بدور مساعدي ...

– كان عليك التحدث من البداية أنك تمتلكين خطة

– في الحقيقة راودتني الفكرة الآن فقط.

ومن هنا قررنا الانطلاق في تنفيذ خطة متهورة لم ندرس نتائجها جيدا، ولو أني عرفت أن الاحتمال الأكبر هو انتهاء قرارنا بعواقب وخيمة، فكل ما يبدأ بالكذب لا ينتهي بشكل جيد في أي علاقة إنسانية.

العلاقات المبنية على الكذب هشة وتنكسر بسهولة، بناء الثقة فيها يكون صعبا للغاية على الطرف الكاذب فمحاولة إخفائه للكذب وتصنعه لشخص آخر يجعله يكبت الكثير في داخله خوفا من فقدان ثقة الطرف الآخر به.

بعدها في كل نقطة تكاد تنكشف فيها حقيقته يكذب كذبة أخرى بيضاء قد يراها صغيرة بالنسبة له، المهم أن ينجو من الموقف ... لكن لا

شيء يخفى تحت الشمس، مهما طال الزمن أو قصر مهما كثرت الأكاذيب مهما تهرب الشخص من الحقيقة، هي ستلاحقه... في الحقيقة كل هذا الكلام مقتبس من رؤى قالته في إحدى رواياتها التي لامست قلبي لأني رأيت فيها شيئا من علاقتي السابقة فجعلتني أعيش الماضي من جديد، وفي الأخير ختمت كل أقوالها بعبارة أصبحت اقتباسا مشهورا فيما بعد «لا تدخل في حياة أحدهم بكذبة فحينها ستجعل حياتك معرضة للانهيار بالحقيقة».

رغم معرفتي التامة بخطورة الوضع إذا كذبت عليها، لكن نفسي الشريرة تغلبت علي، نفسي الأنانية التواقة لفك الفضول جعلتني أرى الكذب طريقا للحقيقة بينما ذلك أمر غير محمود.

بهذا أنهيت جلستي مع علياء وودعتها على أن نلتقي بعد أيام، رغم التعب لم أنم، بقيت كلمات رواياتها تدور في رأسي باستمرار وفكرت في عواقب الكذب، لكن كشخص منافق قررت الاستمرار في الخطة ولو كنت كاذبا، ولو أن النهاية لن تكون سعيدة.

٣

حب من أول ابتسامة.

اتفقنا أنا وعلياء على الانتقال مؤقتا إلى المدينة المجاورة أين تسكن رؤى، لنبدأ بخوض مغامرة استثنائية في حياتنا التي عهدت أن تكون روتينية، لكن الوضع كان أصعب مما تخيلنا فلا خطة بدون عقبات، لم نستطع كراء منزلين بعقد لمدة شهر فقط فنحن لا نخطط لقضاء وقت طويل هناك، قررنا الانسحاب بمجرد معرفة سبب كتباتها للرواية ولا نتمادى في الكذب.

حتى مع إيجادنا لبيت واحد علياء رفضت السكن معي كأننا لم نترعرع في مكان واحد على كل حال، قالت إنني أعيق حريتها واستقلاليتها فهي اعتادت على العيش لوحدها وهذا اقتحام للخصوصية، نسيت اقتحامها لخصوصياتي مئات المرات، تستعمل مطبخ منزلي أكثر من استعمالها لحمام منزلها... تشاجرنا كثيرا وكاد أحدنا يخنق الآخر لكن مر كل شيء على سلام بعدها ... عكس ما يقال هذا هدوء بعد عاصفة، حياتي كلها عواصف بسببها.

في النهاية ساعدتنا والدتي بإيجاد منزلين متقاربين بعقد لمدة شهر، شبكة علاقات أمي لا يستهان بها فعلا لكني لم أخبرها بما سنفعله رغم إلحاحها علي بذلك، لا أريد منها التدخل فهي بلا شك ستمنعني من فعل ما أريد لأنها تكره رؤى وتنتقد رواياتها دائما، أما الباقي فعلياء من اهتمت بكل الإجراءات لأنني كنت مشغولا حد الموت لإنهاء مواعيد مرضاي حتى أتمكن من أخذ عطلة، واضطررت للاعتذار كثيرا، مر علي أسبوعين أطول من سنين دراستي للطب، بالكاد نمت فيهم لأربع ساعات متواصلة، كدت أنسى ملمس وسادتي.

وصل اليوم الموعود الذي ننتقل به مؤقتا إلى منزلينا الجديدين، بعدها شرحت لي علياء سبب إصرارها على الانتقال والسكن متفرقين، في حالة شكت بنا رغد وتقفت أثرنا لن تعرف أننا إخوة لهذا كانت تتعذر بخصوصيتها وما إلى ذلك، لم أفهم لماذا لم تخبرني بذلك من البداية ولم أر ضررا في معرفة رؤى لكن رأس علياء متحجر وانتهينا بتنفيذ ما تريده هي، فالمنزلين تم كراؤهما وانتهى.

نهضت باكرا لأجهز نفسي، اليوم مميز مثل تميز أيام العيد، تنهض باكرا سعيدا دون سبب وترتدي ملابسك بفرحة كأن موعدا مهما ينتظرك، شعرت بفرحة طفل صغير بملابسه الجديدة أو أقرب إلى فرحة صديقين التقيا بعد فراق.

خرجت من المنزل وأحكمت إغلاقه فما دامت علياء استطاعت الدخول ستقدر أمي على ذلك أيضا وهذا آخر ما قد أرغب به، تفتيش أمي لأغراضي بحجة «الأم يجب أن تعرف كل شيء عن أبنائها».

تم تصليح المصعد وأخيرا، يبدو أن يومي بدأ بشكل جيد، هذه علامة حظ مذهل بلا شك، أسبوعين من التعب والحظ العاثر أتت

بثمارها، ركبت معي في المصعد جارتي المتطفلة لم تزح عينيها ولو دقيقة عن حقائبي أعرف أنها تحترق من الداخل لتسألني عن وجهتي، لكن تركتها لتموت من الفضول وخاصة بكلماتي الأخيرة التي تدل أني سأغيب وقتا، قلت لها: «لن أراك لمدة إلى اللقاء»، هي لن تنام اليوم لأني فررت منها دون أن تخرج مني الحقيقة ستجعل مني حديث العمارة لمدة ثم ستنسى ذلك، لطالما كانت هذه عادتها.

توجهت بالسيارة لعمارة علياء ثم اتصلت بها لتنزل، انتظرتها أمام الباب متكئا على سيارتي محاولا تغطية أشعة الشمس بيدي إلا أن بعضا من أشعتها تسللت لعيناي فدمعت، كنا في بداية الربيع لكن الجو كان ساخنا جدا والشمس ساطعة دون أثر للسحاب.

بقيت أنظر للبيت الكبير الذي يقع في منتصف العمارات، لطالما ظننت أنه يقع في مكان غير مناسب، تسكن به عائلة كبيرة، كانوا يتشاجرون مجددا وأصواتهم تصل للجميع، يا ترى ما السبب هذه المرة ... ابنهم الأصغر يرفض الدراسة بجد أم ابن عمهم سيدخل السجن مجددا، أو ابنهم المعجب بعلياء يرفض الزواج كالعادة، بسببهم حينا ليس مملا بعض الدراما في الصباح جيدة أحيانا، خرج والدهم وراء أخيهم الأوسط بعصا، يبدو أن عضوا جديدا في العائلة يسبب المشاكل ... يا ترى ما الذي أقدم على فعله، كنت أتابع الأحداث باهتمام ومتشوق لما سيحصل، فهمت شعور جارتي قليلا ... إذا هو أشبه بمشاهدة مسلسل على الواقع ... الأمور تعقدت هناك إن استمر الوضع دقائق أخرى سيصورهم أحدهم ويصبحون حديث البلدة ماذا لو قمت أنا بذلك؟

يجب علي التوقف عن التفكير بشكل شيطاني، خطط مثل هذه يجب

الاستمتاع بالتفكير فيها فقط لا بتطبيقها، كنت أفكر بجدية كالغبي هل سأصوره أم لا لكن لم يسببوا لي المشاكل يوما ولطالما كانوا لطيفين معي من غير الجيد رد الإحسان بالسوء، شردت مع الشجار حتى شدني شخص من ملابسي انتبهت فوجدت علياء أمامي، لم ألحظ مجيئها لأني كنت منشغلا بالتجسس والتفكير بخبث ...

لكنها لم تكن علياء التي أعرفها ... مهلا هل هي حقا أختي؟ وضعت ألوانا جميلة على جفنيها وأحمر شفاه بلون الكاميليا الزهرية، أشبه بلوحة فنية عنوانها الربيع، ارتدت تنورة طويلة وردية اللون بها العديد من الأزرار مع كنزة بيضاء خفيفة وحذاء أبيض بكعب عال، شعرها مسدول يصل لأسفل خصرها، لماذا لم ألحظ من قبل أنه كان بهذا الطول؟ تحت أشعة الشمس بدت خصلات من شعرها ذهبية، حتى أنها قصت غرتها.

استمرت بالنظر إلى الجيران وهي تضحك، وضعت بضعا من خصلات شعرها وراء أذنها، ارتدت أقراط أذن على شكل زهور بيضاء ... لم أرها تضعهم من قبل قط ... لم أرى علياء التي أمامي بكاملها من قبل، كان تغيرها المفاجئ محيرا، حتى انتبهت لنظراتي غير المألوفة لها ...

- أين عقلك يا ولد؟

- تبدين جميلة.

- حقا؟ هل يمكنك إعادة ما قلته حتى أستطيع تسجيله ... حتى كريم أخبرني بنفس الشيء ... قال أنت تشبهين والدتك كثيرا.

- هل زرتِ والدنا؟

لكن علياء شردت مع جارنا من جديد الذي أثار جلبة في هذا الصباح ... الأمور تعقدت هناك، أعدت سؤالي عدة مرات حتى انتبهت وأجابت.

– طبعا زرته ... سأشتاق له.

بدأت بالشك أن شخصا ما قام باستبدال علياء أختي، هل هذا وهم كابجراس؟[1]

لم تكن المدينة بالبعيدة لذا سنصل سريعا، الطريق المؤدي إليها كان منعشا، سرنا في خط من الأشجار الخضراء التي تمنح السعادة في الصباح، يستحق المكان إقامة نزهة ربيعية فيه.

لكن ما إن وصلنا حتى بدأت العواقب تظهر فعلياء نسيت مكان المنزلين، وأمي لم تسرع بالرد علينا، لا أعرف متى ستتعلم أن تزيل وضع الصامت من هاتفها، لذا بدلا من الاستقرار في ثلاث ساعات أو أقل تطلب منا الأمر اليوم بأكمله، بقينا ندور لساعات في دوائر لا متناهية وكل الشوارع بدت متشابهة، مع وصولنا لوجهتنا أخيرا نام كل منا بعمق، في اليوم التالي اهتممنا بتوضيب أغراضنا وحفظنا السيناريو الذي حضرناه لإخبار رغد به ... عن التحقيق وشكوى أحد المعجبين، كما وضعنا توقعات عن ردة فعلها أو تعاملها معنا وكيف نتجاوب معها رغم تخوفنا ما إن كانت ستصدقنا، نحن سنخاطر وحسب.

مرت أيام أخرى تعرفنا فيها على مرافق المدينة جيدا فسيكون من المخجل عدم معرفة اسم الحي الذي نسكن به حتى، كما لا أرغب في

---

١ اضطراب يصاب به الشخص بحيث يتوهم أن صديقه أو والديه أو أي شخص قريب استبدلهم شخص محتال يشبههم بمظهرهم.

الضياع مجددا.

حان وقت الذهاب إلى رؤى لا مزيد من الوقت لنضيعه ... مازلت أناديها برؤى لست معتادا على اسم رغد بعد، فقد قرأت رواياتها على مدار عشر سنوات باسم رؤى، أنا أعتبر رؤى ورغد ليستا نفس الشخصية، أحس كأن رؤى تبدو شخصية قوية لا تهاب أن تكتب عما يرهق ثقلها ولا يستهان بقوتها في التأليف بينما رغد شخصية انطوائية تكره الجميع وتفضل العزلة، هي امرأة بشخصيتين.

التقيت بعلياء أولا، مجددا على غير عادتها ترتدي ملابس تظهر أنوثتها الطاغية، هذه المرة اكتفت بقليل من الكحل على عينيها الذي أضفى بريقا خاصا فبدت عسلية أكثر كالشهد وأمسكت شعرها على شكل ذيل حصان، ارتدت ثوبا بنيا بأكمام طويلة وحذاء بكعب صغير، ما الذي يحدث؟ متى اشرت كل هذه الملابس؟ أم أنها لطالما امتلكتها لكن لم تجد الفرصة المناسبة لارتدائها؟ لكنها ليست الفرصة المناسبة اليوم ومنذ متى تضع عطرا قويا؟ كانت تبدو كمحققة أكثر في السابق هي تبدو كعارضة الآن، هل تنوي هذه البنت فضحنا؟ قررت التصرف كأنني لم ألحظ تغيرها حتى تحدثني بنفسها عن سرها، هل ترغب بالزواج أخيرا؟

ركبنا السيارة وسكتنا طوال الطريق كأن كلا منا ينتظر الآخر لكي يبدأ الكلام، استمر الوضع إلى أن وصلنا، أحسست كأنها تريد قول شيء ما، فانتظرت منها إخباري سبب تخليها عن سروال الجينز المفضل لديها وسترتها الجلدية لكنها لم تفعل.

لا أصدق أنني أمام بابها، أنا الذي لم آخذ ولو عطلة في حياتي من العمل وعلياء التي تقدس العمل أكثر مني ... حتى أنها لم تتزوج

بسببه، ها هي تستعمله في موقف مشبوه قد يؤدي بخسارتها لعملها إن بلغت عنا رؤى، كان كل شخص يطلب يدها يأمرها بترك العمل فينتهي بتركها له، لكنها اليوم ستكذب وتستغل منصبها الذي تعتز به...

بيت رؤى كبير للغاية، لم أعتقد من قبل أنها بهذا الغنى، كان من طابقين بطلاء أرجواني به الكثير من النوافذ وسقف قرميدي، حديقة صغيرة أمام الباب تملؤها زهور الياسمين، مثل ما وصفته في روايتها تماما، لم أتخيله بهذا الشكل بالضبط، تخيلته أصغر ولم أتوقع وجوده في منتصف الحي، لطالما تخيلته منعزلا لسبب ما رغم أنها ذكرت بوضوح أنها تسكن وسط المدينة.

تشاجرت مع علياء كالصغار على من يرن الجرس أولا، واستمرينا بدفع بعضنا البعض حتى تشجعت أنا وضغطت على الزر ...

دقائق من الانتظار مصحوبة بهدوء مخيف، فقط صوت أنفاسنا العميقة يعم المكان، ثم نسمع صوتها من آلة الجرس تسأل من نحن، هنا انتبهت لوجود كاميرا معلقة فوق الباب، أتمنى ألا تكون شاهدت شجارنا المضحك، سيكون محرجا أن ترى بالغين بمثل عمرنا يتشاجران على أمر تافه.

أخرجت علياء من جيبها شارة شرطية مزورة، ولوحت بها اتجاه الكاميرا قائلة: الشرطة هنا، هل أنت الآنسة رغد؟

فتحت الباب بنفسها ببطء شديد، ثم نظرت بعين واحدة من زاوية الباب، كقط خائف، بينما علياء دفعت الباب بتطفل ودخلت، فرجعت رؤى خطوات للوراء.

لن أنسَ أبدا لحظة التقاء عيناي بها، فتاة قصيرة جميلة للغاية،

شعرها بني قصير يصل لأسفل أذنيها لا يغطي رقبتها، عيناها جمعت كل الألوان الجميلة بنية مخضرة، أجمل ما رأت عيني، وجه دائري صغير وشفاه ممتلئة، ارتسمت علامات الارتباك والحيرة على وجهها بينما تنقل نظرها بيني وبين علياء، فطالبناها بالهدوء، بدأت بالتنفس ببطء واضعة يدها على صدرها كأنها تعاني من مرض ما ثم طلبت منا التفضل بالجلوس.

– أتيتم أسرع مما ظننت.

من كلامها تيقنا أنها طلبت الشرطة بنفسها بالفعل لكن لماذا؟ غرفة الجلوس كانت مقابلة تماما للمدخل لذا دعتنا للدخول لها مباشرة، جلت بنظري في المكان الذي يغلب عليه اللون الرمادي، إذا هي لم تخن اللون الأحمر بلبسها للفستان الأبيض واقتنائها لبطانية رمادية فقط بل في بيتها أيضا، جلسنا مقابلين لبعض لذا بقيت أراقب تحركاتها و تعابيرها، كانت لدي عادة مراقبة يدي المرضى لأخذ فكرة عن وضعهم النفسي فاليدين أكثر ما يستعملها الشخص في يومه، فانتبهت أن لديها عادة قضم الأظافر ومن طريقة تكسر أظافرها لا بد أنها عادة حديثة العهد، لم تذكر ذلك في روايتها لذا لا بد أنها كانت متوترة للغاية في الآونة الأخيرة بعد نشر الكتاب.

– هل يمكنك أن تشرحي لنا موقفك يا آنسة؟ في الحقيقة أحد قرائك اشتكى بكونك تحاولين الانتحار لهذا اضطررنا للتطفل على بعض من خصوصياتك نحن آسفان لكن كان هذا من باب الاحتياط في حال لم نلحق إلا بجثتك ...

– أنا لم أحاول الانتحار أبدا ولم أفكر من قبل بالإقدام على قتل نفسي، أنا لا أعرف من أين أبدأ الشرح ... أولا من القارئ الذي اشتكى؟

السؤال الذي لم نتوقعه، لكن علياء تصرفت بسرعة وذكاء.

– لا يرغب في الإفصاح عن هويته كل ما يهمه كونك حية لذا هلا تخبرينا بمشكلتك حتى نتمكن من مساعدتك؟

– أنا لم أكتب الرواية ... لست الكاتبة.

نظرت في علياء نظرة محيرة، ما الذي تهذي به هذه؟

– أنا لم أكتب الرواية عن نفسي ... لم أكتب رواية «أنا»، شخص آخر قام باختراق حسابي الالكتروني وأرسل الرواية لدار النشر باسمي وبما أنني عهدت إرسال رواياتي لهم بنفس الطريقة لم يتحققوا من هويتي وقاموا بنشرها مباشرة، أنا خائفة الآن من الكاتب الحقيقي، كل ما في الرواية صحيح عني بشكل دقيق ... الكاتب يعلم عني معلومات مفصلة للغاية لا يمكن لأي شخص معرفتها، يعرف حتى لوني المفضل ومنزل الغابة الذي ألجأ إليه للكتابة، لا أتذكر أنني أخبرت أحدا عنه أو عن موقعه إنه مكاني السري للجوء إليه عندما أفقد الإلهام، حتى أنه يعلم أنني ربحت في مسابقة للكتب عبر الأنترنت وأن أمي أهدتني وشاحا أحمر، أنا لا أعرف إلى أي مدى كان يراقبني هذا الشخص دون أن أنتبه، مرعب أنه يريد مني الانتحار، قراءة الرواية وحدها جعلتني أرتعد خوفا...

آخر ما توقعناه أنا وعلياء يحدث الآن، السيناريو الذي لم نحفظ منه شيئا.

– هل هناك شخص تشكين به؟ أعني أنا كامرأة أنتبه أحيانا لبعض الرجال الذين ينظرون لي بنظرة غريبة ... تعرفين أقصد حدس المرأة.

– لا أحد يخطر على بالي حاليا لا يوجد شخص من هذا القبيل، لكن

هناك خطأ في الرواية، الشيء الوحيد الذي ليس صحيحا عني ...

– ما هو؟ أعتقد أنه قد يكون ثغرة الكاتب الحقيقي ...

– لا أعرف شخصا اسمه أدهم، أنا بالكاد تحدثت إلى رجل منذ وفاة والدي وتركي للجامعة، أنا انعزلت تماما عن الناس، لذا ربما يكون الكاتب الحقيقي طبيبا اسمه أدهم مهووسا أو شيئا كهذا؟ يريد من نفسه أن يكون بطلا في روايتي، هذا ما توصلت إليه بعد تفكيري المطول، خاصة أنه ركز على شخصيته في الصفحات الأخيرة ونسب لنفسه سبب انتحار شخصيتي.

تجمد الدم في عروقي من كلماتها لم أستطع تحريك ساكن، تصبب العرق من جبيني لكن علياء بدت باردة وصلبة كالتمثال ولم يرف لها جفن، عندما رأت وضعي طلبت منها السماح لنا بالخروج وشكرتها على تعاونها معنا وأننا سنبحث في القضية ونجد الكاتب في أسرع وقت، ودعتنا رغد مبتسمة كطفل صغير، أول ابتسامة رفرف لها قلبي منحتني أملا ومسحت خوفي فلماذا أفزع وأنا لست الكاتب؟

ما إن خرجنا وركبنا السيارة بقينا شاردين لفترة نفكر فيما قالته لنا رغد للتو، ثم تكلمت علياء.

– لم تكن الكاتب صحيح؟

– هل تركتي عقلك في العمل؟ إن كنت الكاتب لما قد أطلب مساعدتك لإيجادها؟

– يجب أن تبتعد عنها حالا وللأبد لن نعود لرؤيتها مجددا ستشك بك وسترفع دعوة ضدك أنا بالكاد أسرعت بالخروج والتسلل قبل أن تنتبه وتطلب أرقام هواتفنا أو تسأل عن أسمائنا ... لو كان الاسم فقط

الذي يطابقك لكان الوضع منطقيا نوعا ما لكن المهنة أيضا؟ من قد لا يشك في مثل هذا الموقف؟ حتى أنه ذكر في الرواية بأنك من برج السرطان، كيف ستقنعها أنك لست الشخص نفسه؟

– هل تشكين بي أيضا؟

– لست أشك بك لكنني لا أريد منك التورط في شيء لا يد لك فيه.

– لكنني أرغب بإنهاء ما بدأته، أريد معرفة من يريد تحطيم مسيرتها المهنية

– إذا فلتفعل هذا لوحدك أنا سأعود للبيت لأنه سيتم رفع توقيفي عما قريب وسأواصل عملي لذا فلتفعل ما تشاء وإياك وطلب مساعدتي مجددا لأنني سأكون مشغولة.

لم نتحدث بعدها حتى وصلنا لبيتها المستأجر ونزلت علياء من السيارة دون توديعي حتى، أما أنا فعدت لمنزلي لأفكر في طريقة لمساعدة رؤى دون أن تعرف أنني أطابق الرجل في كتابها.

مهما فكرت فكل الطرق تؤدي إلى الحقيقة، الكذبة الأولى دائما ما تحتاج لتابعاتها لكي تتم وخطأ صغير في الوسط سيدمر سلسلة كذبك ويصبح كل ما عملت من أجله بلا فائدة، وأنا كشخص يتكلم بعينيه قبل فمه لا أستطيع إخفاء الكثير فملامح العينين تفضح صاحبها، ليس من السهل قول كذبة وعيناك ثابتة أو تتجنب حزنك دون أن تدمع عيناك، لذا ستستمر بتجنب التقاء عينيك بالشخص الآخر.

لكن رغد كاتبة، التحايل على كاتبة ليس أمرا يسيرا، فهي مرت على كتابة آلاف الشخصيات الخبيثة، الكاذبة والآثمة لذا هي تعرف كيف تدرس شخصية كل فرد، مثلما أستطيع دراسة جسم أي شخص

تستطيع هي معرفة ما بداخل العقول لأنها سبق وأن درست عنها جيدا.

بعد تخمين، قررت الذهاب بدون خطة، فلندع كل شيء يسير في حال سبيله، أحيانا يكون من الأفضل عدم التفكير في الأمور لوقت طويل فسينتهي ذلك بتعقيدها أكثر لا غير، أنا لا أجيد التخطيط من البداية لطالما سلكت الطرق المباشرة لذا بدل التفكير في خطة لمساعدة رغد دون كشف هويتي فضلت البحث عن فرصة لإخبارها الحقيقة وأترك لها خيار الشك بي من عدمه.

انطباعي عنها بالبداية في الواقع كان سيئا عندما بدأت بالتحدث، لم تكن خائفة على الإطلاق وتحدثت عن الأمر بهدوء شديد عكس ما ادعت، صحيح أنها تعاونت معنا وأجابت على أسئلتنا لكنها لم تذرف ولو دمعة واحدة، تحدثت بوجه جدي مخيف، عادة الناس في موقفها قد يبكون بشدة ويترجون الشرطة بشكل متكرر لمساعدتهم بأقصى سرعة ممكنة، أما هي فودعتنا بابتسامة رغم أنها كانت كفيلة بمسح انطباعي السيء إلى الأبد إلا أن شعور الشك لم يزل تماما، صحيح أن رؤيتي لها تغيرت من قطعة جليد إلى طفلة صغيرة، فلم أرد إساءة الظن بها حقا، فكم من شخص رأينا في عينيه شتاء باردا بينما ما زال قلبه يزهر بالمشاعر، أو كما قالت في إهداء روايتها تحت الطاولة «إلى الهادئين ... الذين تحمل ملامحهم الكثير من الألم أو السعادة إن قرأتها جيدا»

٤

من خلف الستار؟

جاءت علياء لتوديعي قبل أن تصل الشمس لمنتصف السماء، أحضرت معها كعكا إسفنجيا لي، متى ستفهم أني لا أفضله ويجب عليها التوقف عن فرض تفضيلاتها علي باستمرار.

ترتدي بشكل غريب مجددا ... أقصد جميل، فستان أحمر طويل جعل طولها يبرز أكثر.. لا أصدق أنه مر أيام دون ارتدائها للون الأسود، عرضت عليها إيصالها بنفسي لمدينتنا، فقبلت بدون تردد هي لم تحضر سيارتها معها ولا تريد تضييع المال على سيارة أجرة، نصحتني طوال الطريق بالابتعاد عن رغد وألا أورط نفسي حتى أصابني الصداع من لهجتها الآمرة وأزعجني تحدثها بأيديها، ابتليت بأخت شرسة لا تعرف ما يعنيه آداب الحوار.

لكن هذه المرة أنا سأذهب عكس ما تقوله أختي فليست بالضرورة محقة دائما، لقد كبرت بما فيه الكفاية حتى لا تتحكم في قراراتي وتصدر أحكاما عن حياتي، لطالما أرادت تسيير شؤوني بطريقتها وقد طفح

الكيل، تعاملني كابن لها أكثر من أخ.

لم تصمت ولو لثانية رغم تجاهلي لها حتى آخر لحظة ... كيف لم تتعب من الحديث عن ذات الموضوع، حتى أنها هددتني بإخبار والدنا بما فعلناه، هذا ما كان ينقصني ... لو يعرف والدنا سيبلغ عنا للشرطة دون اعتبارنا أولاده، هو يتحول لشخص جدي ومخيف عندما يتعلق الأمر بالكذب أو الخداع.

أبي «كريم» الذي لطالما فضل علياء من الصغر، كان من نصيب علياء كل ما هو جميل، ولادتها قبلي بسنوات كانت كفيلة بأن تسرق مني كل الحب، كانت تقوم بكل ما تريد من أفعال طائشة ومصائب حبذا عدم ذكرها، ويكون من نصيبي العقاب، برغم درايته التامة أن علياء هي الفاعلة لكنه يتجاهل الحقائق.

ذات مرة عندما كنت صغيرا في حادثة أتذكرها جيدا كأنها البارحة، اشتكت جارة لنا لأبي بسبب تعرض ابنها للتنمر، كان أبي يعرف جيدا أن علياء الفاعلة لكنه أبرحني ضربا دون شفقة لدموعي وصراخي... لذا جمعت شتات نفسي وأخبرته أن علياء الفاعلة ولست أنا لكنه ابتسم وقال كلاما حطم علاقتي معه وجعلني أكرهه لليوم ... قال: «حتى لو قتلت علياء شخصا أمامي سأكذب عيناي وأصدق أنك الفاعل».

حتى والدتي كانت تفضل علياء، وتتحجج بأنها لا ترغب في جعلها تشعر بأي نقص عاطفي كونها تحتاج للرعاية أكثر مني لكيلا تشعر بغياب أمها أو تحس باختلاف عن الأطفال الآخرين، لكن ماذا عني؟ صحيح أنني كنت أنا وعلياء على وفاق تام وعلياء كانت تعتني بي أكثر من أمي نفسها لكن داخليا بيني وبين نفسي كنت أغار منها أحيانا، لطالما كان لها الحرية التامة في التصرف، أما أنا فوالدي يحاول التحكم

في حياتي حتى يومنا هذا.

ظننت أنه بمجرد تخرجي وحصولي على وظيفة ثم انتقالي لن يكون لأبي أي دخل، لكنه يرغب في أن أتزوج بقريبتي التي لم أحدثها منذ أن كنا بالثامنة بتحريض من أمي، ألم يحن الوقت لأعيش بسلام؟ كيف يريدون مني الزواج بعد رفضهم علاقتي السابقة؟ العيش في عائلة لا تعترف بالحرية الشخصية يفقدك السلام الداخلي.

صرت أقود بسرعة من الغضب لكن علياء استمرت بالحديث غير آبهة لغضبي منها، هي تصبح شيئا فشيئا مثل أبي، وعند قرب وصولنا ختمت خطابها الطويل بالاستهزاء مني قائلة:

-ماذا لو اكتشفت هويتك الحقيقية؟ أي موقف محرج ستورط نفسك فيه؟ تبدو فتاة متعجرفة، هل تظن أنك في إحدى رواياتها أو مسلسل درامي حيث تقع في حبك وتسامحك على الكذب ثم تعيشان بسعادة إلى الأبد؟ فقط انس شأنها ولتعد لحياتك العادية مثلما كنت ... لطالما شعرنا بالفضول حولها وعن شكلها وها قد أشبعت فضولك لذا فلتستسلم ... هي لم تأخذ أرقام هواتفنا وبالكاد ستستطيع التعرف على هويتنا من لقطات الكاميرا الأمامية، إنه أفضل وقت للانسحاب فلتتوقف عن لعب دور البطل.

لم أعرها اهتماما كأنني لا أسمع ما تقوله، هي لم تترك لي أي فرصة للحديث على كل حال ... سأتركها لتفعل ما تريد فلتخبر أبي فلتخبر العالم أنا لا أهتم، كل هذا الوقت كنت أصارع لإرضاء عائلتي لكني أدركت أن هذا محطم للنفس، كثرة التظاهر تجعل قلوبنا هشة، كل مرة أحاول فيها كسب رضى من هم حولي ارتفعت آمالهم وتوقعاتهم بشأني وهكذا يتحكمون بي أكثر على حسب أهوائهم وينتظرون مني بذل

المزيد من الجهد لأجلهم. ليس وكأننا نعيش كثيرا، لذا حياة واحدة لا بد من عيشها بثمن والقيام بما أرغب به بدل مواكبة الآخرين خشية أن أخيب ظنهم، لم أوافق من قبل على مقولة عش وكأنك ستموت غدا لكني عرفت قيمتها اليوم.

لاحظت علياء أخيرا لا مبالاتي لكلامها، فاستسلمت وتوقفت عن الثرثرة ... عند وصولنا نزلت معها لأساعدها على حمل حقائبها ... لماذا أحضرت كل هذا إذا كانت ستسرع بالعودة، كنت أظن أنها تملك سروال جينز واحد وقمصان رجالية وسترات جلدية فقط، ساعدتها في إيصال أغراضها للمنزل ثم ودعتها.

قبل مغادرتي لحقتني وقالت لي كلمات تذكرتها جيدا طيلة حياتي، قالت: «أنت تحب الجدال، لكنك فضلت الصمت وعدم مناقشتي، إذا أعتقد أنك وصلت لقناعة أن شيئا لن يغير طريقك تجاه رغد، حظا موفقا» ... لم أعرف ما أقوله، سعدت كثيرا لأنها وافقتني أخيرا لكن لم أرغب في إكمال الحديث عن رغد معها فاكتفيت بإخبارها أنها جميلة بفستان أو غيره «لست مضطرة لتغيير مظهرك حتى تبدين أجمل»، هذا ما قلته لها بالضبط.

ابتسمت لي وصعدت لمنزلها، لا أصدق أنني سعيد بسبب هذا، يبدو أن عادة إرضاء الآخرين لا يمكن التخلص منها بسهولة.

عدت إلى بيتي بمدينة رغد، جلست أحدث نفسي لساعات، ماذا لو كانت علياء محقة وأن كل هذا سينتهي بشكل سيء؟ فهي تمتلك حدسا جيدا تجاه بعض الأمور، ترددت للحظات ثم عزمت أمري على إكمال ما كنت على صدد فعله وليحصل ما يحصل، سأندم بلا شك إن لم أفعل، تفقدت الأوراق التي منحتني إياهم علياء عنها مجددا فوجدت

رقمها فحفظته بهاتفي.

اتصلت بها ... ناديتها برغد، قررت تعويد نفسي على التحدث معها باسمها الحقيقي، في محاولة لأن أعتبر هذا لقائي الأول بها كأنني لم أعرفها على أساس الكاتبة رؤى مجهولة الهوية من قبل، أنا فقط سألتقي بفتاة تحتاج مساعدتي اسمها رغد، كان حديثنا مختصرا وتعرفت على صوتي بسرعة، أما صوتها فكان متغيرا على الهاتف، بدا أكثر بحة مما هو عليه، كأنها تتحدث معي بينما تبكي.

وافقت على مقابلتي لكنها طلبت مني الالتقاء بمنزلها أحسن من الخارج لأنها ما زالت تخاف من الخروج لاحتمالية وجود مهووس يتعقبها فاحترمت رغبتها، مرعب شعور أن شخصا ما يراقبك، أنك محط أنظار شخص لا تعرف ما قد يقدم على فعله.

ذهبت لهناك، كان الوضع غريبا قليلا لأن علياء ليست معي لمساعدتي في الكلام، لكن لابد من الثقة بنفسي، فتحت رغد الباب بأريحية هذه المرة مما منحني شعورا بالاطمئنان.

عندما رأتني كانت تنظر في الأرجاء، فهمت من نظراتها أنها تبحث عن علياء لكن أخبرتها أنني وحدي وفضلت ألا أدخل لبيتها إن شعرت بالتوتر لذا عرضت علي الجلوس في الحديقة الخلفية، كان يقود إليها ممر عشبي بنفس لون البيت به الكثير من النباتات المتسلقة فيمنحك شعورا خاصا بالدفء والهدوء، على غرار الحديقة الأمامية التي يملؤها الياسمين الحديقة الخلفية بها الكثير جدا من الورد الأحمر وبما أننا كنا في الربيع كان كله متفتحتا بشكل جميل فأعطى جوا رائعا للاسترخاء ومنظرا مريحا للعين، وضعت هناك طاولة خشبية مستديرة عليها بعض الكتب مع كراسي.

هل يأتيها بعض الزوار؟ فلو كانت وحيدة دائما مثلما قالت لما لا يوجد كرسي واحد فقط؟ جلسنا ثم سألتها عن أحوالها قليلا وبدأت بطرح الأسئلة المعتادة.

– إذا هل يمكنك التفكير بشخص قد يكون الكاتب الحقيقي؟ ربما شخص قريب منك للغاية يعرف عنك معلومات مفصلة.

– لا أملك أي شخص مقرب سوى والدتي، فوالدي توفي عندما كنت بالعشرين وصديقتي انتحرت منذ سنوات كما ذكر في الكتاب تماما.

– أين هي والدتك؟

– متزوجة من رجل آخر، لكني متأكدة أنها ليست والدتي من فضلك لا تشك بها، هي لا تعرف كل شيء عني، من الواضح أن هذا الشخص أجرى بحثا كاملا عن خلفيتي وأمي لا تمتلك لا القدرات ولا الدافع لفعل هذا هي لا تملك أي سبب لتحاول وضع حد لمسيرتي.

لماذا تدافع عن والدتها بهذه القوة؟ دائما من يغدر بك هو شخص قد قلت عنه «مستحيل، هو آخر شخص أتوقع منه طعني»

استأذنتها بتفتيش منزلها في حالة هناك شيء مفقود أو كاميرات مخفية لأن المهووسين يميلون إلى سرقة أغراض الشخص المعجبين به، أو مراقبته سرا، توقع منهم أي شيء حتى التسلل لمنزلك دون علمك.

انقسمنا في العمل بدأت هي بالتأكد من وجود كل أغراضها في مكانها بينما أنا بحثت عن أي كاميرات، تأكدت من كل ركن في المنزل، لم تزعجني أبدا أو تلاحقني في الأرجاء بل تركت لي كامل الحرية للتجول فيه، بيتها يحتوي على ثلاث غرف بالطابق الثاني، لكن من

الواضح أنها تستعمل غرفة واحدة فقط، أما الطابق السفلي فيه المطبخ، غرفة الجلوس ومكتبة، أشك أنها مصابة بالوسواس القهري كل شيء مرتب ومتناظر بشكل مثالي، وشيء آخر جذب اهتمامي في بيتها هو رائحة اللافندر المنعشة التي تهدئ القلق.

دخلت لمكتبتها كانت كبيرة يتوسطها مكتب صغير، تحوي الكثير من الكتب، تفحصتهم فوجدت من بينهم بعض الرفوف المخصصة لرواياتها، أخذت روايتي المفضلة لها «خلف الستار» التي تتحدث عن فتاة أعجبت بصفحة فتى من دولة أخرى على أحد مواقع التواصل الاجتماعي لسنوات دون أن تراه وشاءت الأقدار أن تلتقي به ذات يوم في مركز شرطة في باريس...

لقاء غير متوقع وغريب بين فتاة فقدت الإحساس بالألم وفتى عاش حياته حزينا ... كانت قد وضعت علامة على إحدى الصفحات التي لن أمل من قراءتها أبدا قالت فيها: « عانقني من الخلف وأبى أن يترك سراحي، أنا التي أصبحت سجينة لحبه لا أجد نفسي إلاّ معه، أنا أمه الثانية التي يلجئ إليها، أنا أسمعه حين يكون العالم أصما، طريقة لفظه لاسمي وحدها تمنحني الشعور بالتميز، فأحببته أكثر من المطر وأغرمت بعروق معصمه البارزة التي اشتدت كل مرة يعانقني فيها بقوة مخبرة إياي بلغتها أنه يريدني لنفسه للأبد.

التفت إليه ناظرة له بعيوني التي قيدته فقال لي: «أنت محياي ومماتي» دائما ما يخطف قلبي بكلماته...»

– هل تحب المطالعة؟

لم أنتبه لمجيء رغد ووقوفها أمامي بينما كنت منغمسا في روايتها الدافئة حتى تكلمت معي، رغم جدية الموقف تملكني شعور

بالضحك، لم نقف بهذا القرب من قبل فانتبهت الآن فقط أنها أقصر بكثير مما ظننت، كان طولها حوالي خمسة أقدام، بينما أنا ستة أقدام وإنشين، بدت كالطفلة الصغيرة أمامي، ذكرتني بتلك الفتاة قليلا ...

- هل سمعت ما قلته؟

أضحكني موقفها أكثر وهي ترفع رأسها لمحاولة رؤية وجهي ...

- هذه روايتي المفضلة.

- إنها المفضلة لي أيضا، كمية المشاعر التي بها لم أوظفها في أي رواية أخرى، أحب كتابة روايات بأبطال يمتلكون حياة وشخصيات مختلفة مثلما قد تكون لاحظت في معظم رواياتي إن قرأتها ... بالمناسبة ما اسمك؟ يسعدني الالتقاء بأول معجب لي شخصيا.

سؤالها جعلني أتوقف عن الابتسام لحظات لأفكر في موقفي، هل أخبرها باسمي الحقيقي أم أكذب مجددا؟ لوحت بيدها في وجهي قاطعة تفكيري، فعزمت أمري وأجبتها اسمي «أدهم».

تغيرت تعابير وجهها بمجرد سماع اسمي، تبعثر انشراحها وحل مكانه عبوس، لم أزح عيني عنها، بقيت أراقب تقلباتها ... ملامحها وتفاصيل وجهها، لاحظت أنها تمتلك شامة تحت عينها اليسرى، بدأت بالرمش كثيرا في محاولة منها لتجنب التقاء أعيننا ببعض، على عكسها بقيت ثابتا منتظرا ردة فعل منها، لكنها سرعان ما عادت لتبتسم ... تمتلك غمازة في خدها الأيسر ... رؤية ابتسامتها حركت زوايا شفاهي لوحدهما ... شعرت بالخجل فبدأت باللف والدوران كالأبله وحك رأسي، لا أعرف ما الذي أفعله، بقيت تراقبني بسعادة ثم قالت لي: «تشرفت بمعرفتك أدهم».

أعتقد أنني نجحت في الاختبار، كان الوضع خانقا فعلا للحظات لكن مر على سلام.

ذهبت ثم أتت بصينية بها شاي وقهوة وهي تدندن أغنية ما، فارتحت لاسترخائها حولي، إذن هي لا تشعر بالريبة نحوي، أنا سعيد لهذا.

– لم الشاي والقهوة معا؟

– لا أعرف ما تفضله، لذا أحضرت الاثنين ... مهلا لا تخبرني أنك تفضل العصير.

– لا أنا أفضل الشاي.

– حسنا، هل وجدت شيئا مثيرا للشك؟ أنا لم أجد شيئا مفقودا، كل أغراضي في مكانها.

– ولا أنا، البيت آمن، بعد أن ننتهي من هنا لنذهب لتفقد جيرانك وأي شخص مقرب منك.

انتظرتها لتغير ملابسها، من أجل ترك انطباع جيد عنها لجيرانها الذين لم تزعج نفسها بزيارتهم من قبل، عادت بسرعة مرتدية ثوبا أبيض بشرائط سوداء على الرقبة، أليس هو نفس الفستان الذي قال الكاتب أنها ستنتحر فيه؟ لم أتخيل أنه يملك شراشف من الأسفل يؤسفني أن مخيلتي لم تكن واسعة بقدر ما ظننت، شردت فيها مجددا، ها قد عاد البريق في عيني من جديد، هي أعادت الروح لقلبي التائه بحسها الأنثوي ... جلست إلى جانبي واسترسلت في الحديث ... ظننتها انطوائية ... أين خبأت نفسها الثرثارة طوال الوقت؟

– أدهم، ألم تقرأ الرواية التي تحدثت عني؟

– بلى ...

– حسنا، هذا هو الثوب الذي تحدث عنه الكاتب في الصفحات الأخيرة ... ثوب أول موعد لي في الرواية، لم أرتده بالقرب من الحي من قبل ... حسنا أنا فكرت ربما إن كان الكاتب أحد جيراني ألن يتفاجأ بارتدائي له؟ علينا مراقبة تعابير وجوههم جيدا، كأنني أعطيه ضربة في الوجه.

– معك وجهة نظر، اتركي الأمر لي أنا جيد في هذا، من تعابير الوجه إلى حركات اليدين ... أنا أجيد قراءة لغة الجسد.

– لننطلق إذا.

– قبل أن نذهب أردت إخبارك أن اللون الأبيض يناسبك.

أردت منها أن تعرف أنني لست نفس أدهم الذي بكتابها، احمرت وجنتيها وطأطأت رأسها مبتسمة، وغيرت الموضوع إلى فوائد الشاي، من يتحدث عن الشاي في مثل هذا الموقف؟ كان عليها التفكير في فكرة أفضل لتخفي خجلها.

رغبت في عكس خط سير الرواية، إن كان أدهم بطل روايتها ينتقدها فأنا لست كذلك ستبقى جميلة في نظري بالرغم عما ترتديه أو تقوله أو ما تفعله أليس الحب أن تتقبل من تحب بفضائله وعيوبه وأن تحب كل تفاصيله؟ أن تمنحه التفهم والحرية.

في أول مرة التقينا بها ظننت أنها فتاة جادة، باردة أعصاب، بدت كشخص فارغ من الداخل ... شخص بلا مشاعر، أخبرتنا بكل برودة أنها لم تكن الكاتبة، لم أفهم ما إن كانت تمتلك صعوبة في التعبير عن نفسها أم أنها بلا مشاعر ... لكن الآن أراها شخصا كان يبحث عن الفرصة ليفتح قلبه الحزين، امرأة بقلب طفلة ... وجسد طفلة تقريبا، قبل خروجنا ارتدت كعبا عاليا أسود لتبدو أطول قليلا، رأسها يصل

لكتفي الآن.

بدأنا بزيارة الجيران الواحد تلو الآخر، طرحنا عليهم بعض الأسئلة التي تجعلهم يظنون أننا لا نشك بأحد منهم بل نثق بهم حتى ينشرحوا لنا، مثل هل رأيت شخصا مشبوها في الجوار؟ هل انتبهت لوجود شخص غير سكان الحي في الأنحاء؟ هل مرت عليك سيارة ليست لأحد السكان؟ لكن الجميع امتلك نفس الإجابة «لم نرَ شيئا» ... «لم نلحظ شخصا غريبا» ... «لا أعتقد أنه قد مر علينا شيء مشابه».

بحسب تصرفاتهم لم نجد شخصا مشبوها ... الكل تعاون مع التحقيق، بل عرضوا على رغد طلب المساعدة في حال أحست أن هناك من يراقبها وبدا أن الجميع صادقا في أقواله وقلقا عليها خصوصا سيدات الحي اللواتي يمتلكن بنات في مثل سنها، لكن أزعجتني نظرات جارها الذي يسكن بآخر الحي لها، لا أعتقد أنه الكاتب لأنه لا يبدو ذو مستوى ثقافي رفيع، كما أنه لا يمتلك كتابا واحدا ببيته، لذا أظنه منحرفا فحسب، كيف يجرؤ على رمقها بتلك النظرات السامة.

ما زال هناك تتبع مخترق الحساب الإلكتروني، أعرف صديقا قد يساعدنا في هذا لكن لست متأكدا من إمكانية نجاحه، لأن عملية الاختراق مر عليها شهور ولا بد من أن المخترق قد محى كل آثاره بالفعل، وما زال أيضا الذهاب للمستشفى المذكور في الرواية الذي من المفترض أن أدهم يعمل به.

ودعت رغد هنا، واعدا إياها بإمساك الفاعل مهما حدث ولو انعدمت الأدلة سنجده بلا شك، لا يمكنه الهروب منا، فالحقيقة مهما بعدت عنا ستظهر في النهاية لا محالة.

نمت لساعات طويلة بعدما عدت للمنزل بسبب الصداع الشديد،

لم أستيقظ إلا ليلا وأول ما طرأ على بالي عند فتح عيناي هي رغد، على هذه الحال تبقى لي أقل من أسبوعين، يجب أن أجد المشتبه به قبل أن تنتهي إجازتي، المشكلة تكمن في انعدام مشتبه به ... لا يوجد من تشك به، من لا يمتلك عدوا أو منافسا؟ أخشى أن يكون هذا الشخص قريبا جدا دون علمنا، لو كانت علياء في مكاني ما الذي كانت ستفعله؟

لكن مهما فكرت أجد أن أمها مشكوك بها ولو أن رغد ترفض تقبل الفكرة، ابنتها قررت تركها وفضلت العيش لوحدها بعدما أعادت هي الزواج من شخص آخر، ربما هي ترغب في أن تعود ابنتها للعيش معها، لأنها تعلم جيدا أنه لا يوجد لها دخل آخر من غير الكتابة، فإن نشرت رواية أخيرة باسم رؤى ستضطر ابنتها للتقاعد والانتقال للعيش في بيت والدتها فهي لن تكون قادرة على تحمل تكاليفها بنفسها وهكذا يتحقق مراد الأم.

لكن كيف أقنعها أن أمها مشبوهة دون أن تسيء الفهم بأني أحاول صنع مشاكل بينهما، لذا يجب تدبير خطة لنقوم باستجواب والدتها ... لكن حتى لو كانت أمها الكاتبة لم ذكرت شخصا اسمه أدهم؟ هذا ما يثير فضولي أكثر.

اتفقت أنا ورغد على الذهاب غدا للمستشفى الموصوف في الرواية لتفقد ما إن كان هناك شخص يطابق أدهم، رغم إحساسي أنه لا يوجد وإن وجد قد يكون توأم روحي دون شك، غريب شعرت كأنني ذاهب للبحث عن نفسي.

أخبرتني أن أنتظرها في مكان قريب من المستشفى ... دقائق وألاحظ فتاة قصيرة ترتدي سروال جينز وقميصا واسعا تغطي رأسها بقبعة تلوح لي، كدت لا أتعرف عليها، حتى رأيتها تقترب مني فتأكدت.

– لم ترتدين اليوم هكذا بخلاف الأمس ألم تقولي يجب أن نعطي الكاتب ضربة في الوجه؟

– قررت الذهاب عكس خطة الأمس، ماذا لو أن الكاتب هنا وبرؤيته لي سوف يهرب؟ أو يطلب من المستشفى التستر عنه، لذا أنا سأدخل بهدوء حتى لا يلاحظني أحد، في الحي كان الوضع في صالحنا أما المستشفى فالأمور تؤول لصالحه.

– ألست تجذبين الانتباه حولك أكثر؟

– أنت من تجذبه بطولك الشاهق، من قد لا يلاحظ وجود عمود مثلك.

في الحقيقة وجودها بجواري هو ما يجعلني أبدو ضخما أكثر، في العادة الناس لا تلاحظ طولي عندما تقف علياء بجانبي لأنها طويلة كذلك، لكن مع رغد أنا عمود إنارة متنقل.

دخلنا المستشفى، وسألنا في المكان عن طبيب اسمه أدهم لكن لا وجود له، طمأنني هذا لسبب ما وزاد من تساؤلاتي في نفس الوقت، لكن استمررنا بالبحث والسؤال عن كل الأطباء الجراحين في المستشفى واتضح أن لا أحد منهم تحت سن الأربعين لذا تستحيل احتمالية وجوده هنا ولو باسم آخر، فحسب الرواية هو في ثلاثينياته، المشكلة هو سعينا وراء شخص مجهول، فكل ما اعتمدنا عليه هو ما ذكر في الرواية، ولو اتبعنا ذلك فسأكون أنا ذلك الشخص لا محالة لذا لا أعتقد أن اتباع ما كتب فقط سيوصلنا إلى الكاتب.

عندما كنا نهم بالخروج رأيت شخصا لم يكن يجب أن ألتقي به هنا وخصوصا مع رغد ... زميلة من أيام الجامعة، كانت في وجهي مباشرة ولا يوجد فرصة للهرب، حاولت التظاهر بعدم معرفتها لكن

هي نادت باسمي ...

- أدهم هل هذا أنت؟

(أنا في مشكلة ...)

- أجل ... مرحبا مها، إذا هل تعملين بهذه المستشفى؟

- نعم، أنا أعمل هنا منذ تخرجي ...

نظرت إلى رغد نظرة متفحصة ثم ابتسمت قائلة: إذا أنت شفيت...

- نعم ... أو ربما ... تعرفين هناك بعض الأشياء لا تنسى.

- معك حق، لن أزعجكما أكثر يجب أن أعود لعملي، إلى اللقاء ... فلتحظيا بيوم جيد، أنا سعيدة لأجلك.

في الواقع هي فتاة مشرقة ومجتهدة لطالما ساعدتني في سنين دراستنا سواء من ناحية الدراسة أو كونها سندا لي عندما أشعر أن العالم أدار ظهره لي، أشعر بالذنب لأني حاولت تفاديها للتو، هي حقا ساعدتني في أشد لحظات حياتي سوادا.

حام حولنا جو غريب طوال الفترة التي خرجنا فيها من المستشفى، جلسنا في كرسي قريب من المدخل لنناقش ما سنفعله تاليا ... أحدثت كلمات زميلتي وقعا خاصا على قلبي، بينما أنا منهمك في عالمي الخاص، قطعت رغد حبل أفكاري.

- هل كنت مريضا من قبل؟ هل كانت طبيبتك؟

- لا، هي زميلة من أيام الدراسة ... في الواقع كنت مريضا نفسيا، ليس جسديا ...

- إذا هل يمكنك مشاركتي قصتك إن أردت؟ الروائيون فضوليون

في هذا الشأن، أنا مستمعة جيدة كذلك، بالإضافة ليس من العدل أن تعرف كل شيء عني بينما لا أعرف شيئا عنك.

– لست من النوع الكتوم جدا بخصوص الماضي، في السنوات القليلة الماضية تعلمت أنه ليس من السيء التحدث عما يثقل قلبك لذا سأخبرك بقصتي، في بداية أيام شبابي، في ثاني سنة جامعية لي بالضبط، تعرفت على فتاة جعلتني أؤمن بالحب من النظرة الأولى، حبي الأول، كنا ندرس مع بعض وسرعان ما طورنا بعض المشاعر لبعضنا، لكن أهلي رفضوا الفكرة تماما دون سبب وجيه ... وحاولوا تفريقنا بشتى الطرق يكرهون العلاقات قبل الزواج ويفضلون الزواج التقليدي، بالإضافة كانوا يروننني صغيرا ومن الأفضل لي التركيز على دراستي ... رغم كل شيء كنت متمسكا بها ... في أحد أيام شتاء ديسمبر الباردة تعرضت لحادث مرور، لم يتم إنقاذها للأسف، عندما هرعت للمستشفى بعد سماع الخبر، وجدت رجلا آخر هناك ... خطيبها، وضعت في موقف صعب ... حينها لم أرغب بإفساد نظرة عائلتها لها وخاصة أنها توفيت بالفعل لذا أخبرتهم أنني زميلها وغادرت، أصبت باكتئاب خاصة بعدما أخبرتني صديقتها أنها لم تأخذني يوما على محمل الجد وإنما كانت تحتاجني لمساعدتها في الدراسة فقط لذا كانت تسايرني وتدعي حبها لي، حتى أنني حاولت الانتحار بسببها رغم خيانتها أنا بقيت أحبها، ماتت خائنة لكنها بقيت في قلبي، وهكذا تعقدت مشاعري بين الإحساس بالكره والحب، عدة أسئلة بقيت أطرحها على نفسي، إذا هل المرأة التي حاربت عائلتي من أجلها لم أكن من تفكر فيه آخر الليل وعند استيقاظها؟ إذا مشاعري لم تكن متبادلة؟ مرت أكثر من عشر سنوات على هذا الآن، تغلبت على مرضي وبدأت أواصل حياتي بينما هناك شيء ما ينقص قلبي، أحاول ملأه دائما ... لهذا بدأت

في قراءة رواياتك، بطريقة ما القراءة ملأت قلبي الأجوف ... عاد ليصبح دافئا قليلا ...

– أتعلم؟ الأشخاص الذين يبدون عاديين مثلنا هم من مروا بأقسى التجارب في نقطة ما أنا أفهمك ... أكثر ما أزعجني في الرواية التي كتبت عني أنه لم يصف مشاعري بدقة عندما انتحرت صديقتي المفضلة ... ولا السبب لأن الكاتب لا يعرف كل شيء في النهاية طبعا، صديقتي انتحرت لأن والدها كان يعنفها كثيرا لأتفه الأسباب، كانت تشكو لي مرارا وتكرارا منه، كانت تطلب نجدتي لكن في كل مرة أخبرها: «في النهاية هو والدك أليس كذلك؟» ... لكن اتضح في النهاية أنه زوج والدتها، آخر رسالة تلقيتها منها قالت فيها «رغد ... هو ليس والدي، لكن أتعرفين؟ هذا جعلني أشعر بشعور أفضل على الأقل الآن أعرف سبب كرهه لي» كان هذا بعد عام فقط بالفعل من موت والدي الذي لم أتجاوزه بعد، ذلك أحرق قلبي مثلك تماما، سألت نفسي ألف سؤال وافترضت عدة احتمالات، رددت «ماذا لو؟» كثيرا، لكن في النهاية كل اسئلتي لن تغير شيئا، سأستيقظ في الصباح وضحى لا تزال ميتة وأبي ليس بجانبي لذا قررت تخطي الأمر شيئا فشيئا لأن ذلك ما كان سيرغب به والدي لو كان حيا.

قالت هذا وعيناها تدمعان بينما تضرب بيدها على صدرها ... صوتها أصبح أكثر بحة كأنها شخص يكاد يختنق يطالب بالنجاة، لم أعرف كيف أواسي نفسي فما بالك مواساتها، اكتفيت بقول بضع كلمات لن تغير من حالها شيئا.

– أمور كهذه تبقى فقط عالقة مع الشخص إلى الأبد ...

– بالمناسبة هل أنت طبيب جراح؟

كل خلية في جسمي ارتجفت بمجرد سؤالها المباشر، هي فقط خرجت عن الموضوع دون سابق إنذار، لو أنها كانت تعلم بذلك على الأقل تطرقت للموضوع بروية لماذا فاجأتني هكذا ... كيف عرفت؟ هل شكت بي في المستشفى أم عند إخبارها باسمي؟ امتنعت عن الإجابة فواصلت كلامها.

– من الأفضل أن تخبرني بجانبك من القصة أو أبلغ عنك، فقط لا تخيب ظني.

تغيرت بسرعة وكأنها ليست نفس الشخص الذي كاد يبكي من آلام الماضي للتو، رسمت تعابير جديدة على وجهها أراها لأول مرة، غاضبة؟ لا ليست كذلك ... إنه تعبير شخص خائف.

– أخبريني كيف اكتشفت ذلك أولا، سأخبرك بجانبي بعدها.

– أولا لم تكن المرة الأولى التي أراك فيها عندما جئت لمنزلي، وكنت أكذب عندما قلت لكم أنني طلبت الشرطة بالفعل، رغبت باختباركم وحسب، ثم بدأ شكي يكبر أكثر عندما لم تعد معك الفتاة المحققة، كنت خائفة منك لأكون صريحة، لكن قررت إخفاء خوفي ومراقبتك للتأكد بنفسي، سأكذب إن أخبرتك أن قلبي لم يكد أن يتوقف عندما أخبرتني عن اسمك، بعدها عندما كنت ستشرب الشاي انتبهت ليديك، إصبعيك السبابتين بالضبط، عليهما علامات مقوسة، ألا يستخدم الجراحون كلتا سبابتيهم للإمساك بالخيط؟ مع مرور الوقت يتسبب ذلك بإبراز علامات.

– من أين تعلمت هذا؟

– من المحقق كونان ..

هل ما سمعته أذناي صحيح؟ هل هي تقول أنها اعتمدت على الرسوم المتحركة «كونان» لكشفي؟ لكن هي لا تبدو خائفة حقا مني، هي تتحدث براحة تامة وليست غاضبة! لم أتوقع أنها ستخبرني حقا بمجرد أن أسألها.

- بإخبارك لي هذا ألا يعني أنك تثقين بي بالفعل؟

- لا تقاطعني دعني أكمل، وما أكد شكوكي هو زميلتك الطبيبة وقصتك، لو كنت محققا لا يفترض أن تدرس بالجامعة، أما عن موضوع الثقة أنا لا زلت لا أثق بك تماما، لكن عرفت أنك لست الكاتب، أنا أيضا أعرف كيف أجري بحثا عن خلفية الناس، سمعت من الممرضات بالمستشفى الذي تعمل به أنك مدمن عمل، وأيضا شخص بياض مؤلم لا يجرؤ على كتابة آلام الآخرين باستهتار، أنا كاتبة لذا أدرك هذه النقطة جيدا.

- لن أجد فرصة للحديث إذا لم أقاطعك، لا أفهم لم كل النساء لا تتركن لك فرصة للحديث ثم تغضبن عند مقاطعتهن ... مهلا! ما الذي قصدته بقولك لم تكن المرة الأولى التي رأيتني فيها؟!

- لأن أول مرة رأيتك فيها كانت قبل ثلاث سنوات ...

- لا أتذكر أننا التقينا من قبل!

- سأحكي لك قصة ولك أن تصدقها أم لا ... قبل عدة سنوات أمي كان عليها إجراء عملية جراحية طارئة، لكن مستشفى مدينتنا أرسلها إلى مستشفى المدينة المجاورة، كنت خائفة جدا وأرتجف عندما اتصل بي زوجها طالبا مني الحضور بسرعة، عندما وصلنا للمستشفى أخبرونا أنها ستكون العملية الأولى للطبيب الذي سيتكفل بها لأنه الوحيد المتاح حاليا، لا يمكنني وصف مدى شعوري بالفزع حينها،

أنت تعلم جيدا إحساس فقدان شخص عزيز، صحيح أنني لم أكن بذلك القرب منها بعد زواجها لكنها ستظل أمي، ولو أن العملية لم تكن بتلك الخطورة أنا خفت بشدة ... لكن بعد ساعات من الانتظار أنت خرجت مبتسما وأخبرتنا أنها بخير، ابتسامتك تلك كانت أكثر شيء مطمئن لي في حياتي كلها.

– أنا أتذكر والدتك بوضوح، فهي أول عملية لي لكن لا أتذكر أنك كنت بهذا الشكل ألم يكن شعرك طويلا جدا؟

– لا تذكرني من فضلك، كان شعري في حالة فوضى وعيناي منتفختان من البكاء الشديد ما كنت لأعرف نفسي من ذلك اليوم أيضا، بعدها لم تسنح لي الفرصة للتحدث معك أو ما شابه، ترددت للمستشفى الذي تعمل به عدة مرات ... تركت مستشفى المدينة وغيرت طبيبي لشخص يعمل معك ... أنا أعاني من الربو لذا أحتاج لزيارة الطبيب بشكل دوري.

– لماذا لم تتحدثي معي؟ لماذا راقبتني من بعيد وحسب؟

– لاحظت أن فتاة ما إلى جانبك تزورك باستمرار لذا استسلمت وابتعدت عنك دون التكلم معك، أنا لم أنس وجهك أبدا، لو علمت حينها أنك تحب قراءة رواياتي لأخبرتك أن اسمي رؤى لم أتوقع أن طبيبا سيكون لديه الوقت لقراءة رواياتي المتواضعة.

– إذا أنت تعرفت علي من أول يوم أتيت فيه إليك؟

– عندما أتيت بصفتك محقق أنا تعرفت عليك لكن لم أكن واثقة فأنا أعرفك كطبيب، قلت ربما هو أحد أشباهك الأربعين؟ عندما أخبرتني باسمك تأكدت لذا بدل الخوف منك أنا كنت سعيدة كالغبية، لكن في نفس الوقت أنا أكثر خوفا من الكاتب ألا يعني هذا أنه يعرف أنك

حبي الأول؟

بدأت تبكي دون توقف ... انفجرت بالبكاء بمجرد إنهاء جملتها، لم أستطع قول كلمة لها من الصدمة، لا أصدق أنني لم أتذكرها، لو فقط ذلك اليوم تحدثنا لتغيرت الثلاث سنوات الماضية من حياتي على نحو آخر.

لم تجد الكلمات محلها من فمي فعانقتها، كل ما زاد شهيقها كل ما احترق قلبي، ضممتها إلي بقوة، الطفلة التي وعدها والدها بالحلوى وانتظرته عاد لها أخيرا، لم نلتق بشكل لائق حتى، كانت قريبة بعيدة، لا أصدق أنها كانت أمامي بينما لم أعرف ذلك، أصابني شعور بالإحباط وقلبي اعتصر، كيف تجرأت على الكذب عليها؟ هل أنا إنسان؟

بعد هدوئها من نوبة البكاء أخبرتها عن القصة كلها، من أول رواية قرأتها لها التي وجدتها على مكتب علياء إلى روايتها الأخيرة، وعن كيف أقنعت علياء بالبحث عنها، وأنا اعتذر منها بين كل جملة وأخرى حتى عادت للابتسام، وضحت لها أن الفتاة التي كانت تراني معها هي علياء ... نفس الشخص الذي أتى معي للتحدث معها، لم تتعرف عليها يومها ... أنا وكدت لا أعرفها في ذلك اليوم بسبب تغييرها المفاجئ، رأت أني وعلياء أفضل إخوة أعجبت بعلاقتي بها ومدى انفتاحنا لبعض.

لكنها أصبحت أكثر خوفا كيف أن معلوماتها أصبحت معرضة للنشر هكذا بسبب الرواية، فعلياء ما كانت لتستطيع إيجادها لولا المعلومات الدقيقة المذكورة، رغم الوضع الصعب الذي كنا به وبدايتنا السيئة من شعرها المبعثر إلى كذبي عليها شاء أن نلتقي لنكون معا.

تهت في رغد، في نفسها التائهة التي تبحث عما يهدد حياتها، من

ناحية ما هل علينا شكر هذا الشخص؟ بسببه التقينا لكني بدأت أراه أكثر إخافة، هل يعني أنه كان يعلم بإعجاب رغد بي؟ هل يمكن أن يكون زوج أمها ... هو من كان حاضرا هناك ...

– ما الذي تفكر به الآن؟

لم أشأ جعلها تفكر في قضية الكاتب كثيرا، شخص بقلب عطوف ومتسامح مثلها لا يجدر أن يلوث نفسه بالتفكير الزائد أو الحقد على شخص ما، أخاف أن تسامح الكاتب الحقيقي إذا وجدناه ... لذا قررت تغيير الموضوع وجعلها تنساه قليلا.

– هل وقعت في حبي بابتسامة فقط؟

– يستغرق الوقوع في الحب ثلاث ثوان بمجرد النظر فما بالك ابتسامة.

– أتفق معك، فأنا وقعت في حبك قبل رؤيتك حتى.

– من كان يظن أن حبي اليائس من أول ابتسامة سيأتي إلي؟

– وحبي من أول كلمة في روايتك من كان يظن أنه متبادل؟

بريقها، احمرار وجنتيها، ابتسامتها، غمازتها، ضحكة عينيها، دموعها وصوتها المبحوح كل ما يخصها رأيته ساحرا، هكذا أزهر حب حياتي تحت شمس الربيع الدافئة.

رغد امرأة زفيرها من الياسمين، ابتسامتها شمس أشرقت فأضاءت مائة شمعة انطفئت بقلبي، تشبه الورد الأحمر في أوج انفتاحه... أصبحت ضعفي وقوتي معا ... أنا أحببتها.

٥

لحظة الوقوع في الحب هي ميلاد جديد.

علياء محقة، بالتفكير في ذلك لطالما كانت أفضل مني بكل شيء، كانت قادرة أيضا على دراسة الطب لكنها تخلت عنه، لنفس السبب قررت الاجتهاد ودراسته بنفسي، لاستكشاف الشيء الذي تخلت عنه علياء، أو بالأحرى وقتها ظننت أنها لم تقدر على دراسته لذا أردت الإثبات لوالدي أني أستطيع فعل ما لم تقدر عليه هي، لكن الحقيقة أنها اختارت سلك طريق تحبه وهو التحقيق والعمل مع الشرطة، عمل آخر تجيده علياء أفضل مني بكثير وفشلت حتى في تقليدها الآن.

رغد لم تعاتبني كثيرا على كذبي كل ما كان يهمها أننا معا وأخيرا، مثلما قالتها كانت تخفي سعادتها وخوفها في آن واحد، فمنذ ثلاث سنوات انتظرت مجيء اليوم الذي نتحدث به، لذا هي قررت مفاتحتي بالموضوع وسؤالي مباشرة في اللحظة التي صارحتها فيها، لم تقدر على الانتظار أكثر من ذلك حتى أعترف لها بكل شيء بنفسي.

بدأنا نتعرف على بعض أكثر، لم تترك شيئا إلا وسألتني عنه،

لوني المفضل، أي طبق أحب أكله في الأيام الباردة، أي روايات أميل لقراءتها، وغيرها من الأسئلة في سبيل معرفتي بشكل أعمق، دونت كل إجاباتي في دفتر قائلة بأن الدفتر كنزها الثمين من الآن فصاعدا.

تقابلنا يوميا تقريبا بعدما أخبرتها أنني سأعود لمدينتي بعد انتهاء إجازتي، صرنا كأحباء فرقهما الزمن منذ وقت طويل بعد أن وجدا كل منهما الآخر أصبحا يخافان من تضييع ثانية واحدة دون قضائها مع بعض، لا يجدان أرواحهما إلا عندما يكونان معا.

ما زلنا في عملية البحث عن الكاتب فنحن لم نصل لنتيجة بعد وللأسف فشلنا في محاولة تعقب مخترق الحساب الالكتروني فانتهى بنا الوضع إلى طريق مسدود، لا زلت أشك في والدتها وزوجها لكنها لا تفعل وتستبعد احتمالي بقوة.

استسلمت لرغبتها خصوصا بعد أن صارت أكثر انفتاحا وإشراقا وتتحدث معي أكثر، لم أظن من قبل أنها بهذه اللطافة ... لذا لم أتحدث لها عن أمها مجددا ... لن أفسد علاقتي بها بعد أن وجدتها بصعوبة، فلطالما تخيلت كيف يمكن لطرقنا أن تتقاطع ونلتقي يوما ما، نحن التقينا بطريقة لم يتوقعها كلانا، لذا سأفعل ما بوسعي للحفاظ على علاقتنا فهي من رد الروح لحياتي لذا يسعدني رد جميلها.

وجدت أن الطريقة الوحيدة لتسمح لي بمقابلة والدتها للتأكد بنفسي دون أن تسيء فهمي هي أن أعرفها على والداي أولا، ولكن أحتاج علياء لحل هذا، قبل أن أبدأ هل ستقبل رغد ذلك؟ الحل هو سؤالها مباشرة دون لف ودوران.

- يشرفني الأمر لكن على أي أساس ستعرفني بهما؟

هذا ما قالته عندما سألتها، كالعادة تربكني أسئلتها وتجعل ضربات

قلبي تتسابق دون سبب ألم يحن دوري لأجعل دقات قلبها تتسابق؟ فأجبت ..

– سأخبرهم أنك زوجتي المستقبلية فهل تقبلين؟

– من لا تقبل ذلك بعد أن سمعته من الرجل الذي تحبه؟

لم أقاوم ابتسامتها فقمت بضمها إلي، كانت صغيرة جدا بين يدي، أحاطت يديها حولي كذلك، يديها الصغيرتين التي لم تقدر أن تطوق ظهري بهما حتى.

– أنا أحببتك قبل التقائي بك، القراءة تجعلك تقع في حب شخص بعيد، عندما قرأت كتبك لأول مرة أحسست أن كلماتك تشبهني كثيرا، كلماتك كانت بمثابة مشاعر اندمجت مع مشاعري فجعلتني أشعر أن لنا ماض واحد، أننا شخص واحد وأنك تفهمينني رغم كل البعد الذي كان بيننا وهذا منحني الراحة أن هناك من جرب شعوري المؤلم.

– أتعلم متى تأكدت من إعجابي بك؟ عندما رأيتك تقرأ كتابي بعمق، لم أرى قارئا يغرق مثلك، كان في عينيك بريق خاص خفق له قلبي، أنت أشبه بشخصية خيالية في إحدى رواياتي التي ظننت أني لن أجد مثيلتها، لكن الكاتب مخيف هل ربما علم بأننا سننتهي لنكون معا؟

– هذا مستحيل، لا أحد يعلم الغيب، أظن أنها مصادفة جميلة منحها لنا القدر، بالنسبة لعائلتي سأعود إلى المدينة لترتيب بعض الأمور أولا ثم سآخذك لرؤيتهم فلتنتظريني.

ما أحتاج ترتيبه هو كيف أحضرها لهم أولا؟ متأكد أن والدتي سترفض وآخر ما قد أرغب به هو وضع رغد في موقف محرج، أمي ما

زالت في صدمة من الماضي أكثر مني وتخاف أن تعود جراحي لتؤلمني، يريدان مني الزواج لكن يرفضان مني الارتباط، المنطق في طريق وهما في طريق، يفضلان شخصا من العائلة أو زواجا تقليديا، لكن يستحيل علي التخلي عن رغد، والشخص المناسب لمساعدتي علياء بدون منازع.

لم نتحدث منذ آخر مرة تشاجرنا فيها، ليست المرة الأولى التي نتشاجر فيها أو لا نتواصل مع بعض لمدة طويلة لكن الوضع غريب قليلا لأن علياء تغيرت، راسلتها متسائلا ما إن كانت في البيت فأجابتني في الحال بالإيجاب.

ذهبت لمنزلها، تحدثنا مطولا كأن شيئا لم يحدث ... لم تسألني عن رغد ولو لمرة، تكلمنا كالمعتاد، حدثتني متحمسة عن آخر قضية تحقق بها ... فتاة فقدت منذ ثلاث أيام بدون أثر لذا هي مشغولة بتحديد آخر مكان وجدت به.

تطرقت بنفسي إلى الحديث عن رغد وحكيت لها كل ما جرى، أعلمتها عن نيتي في تعريف رغد لوالدي، لكن ردة فعلها آخر ما توقعته، هي استشاطت غضبا، لم أرها بهذه العصبية من قبل، رفضت رفضا قاطعا لا رجعة فيه، لم أفهم سبب كرهها لرغد هكذا، هي عمليا لم تفعل لها شيئا، ولا أظن أنها قلقة علي، هي تبالغ في تصرفاتها.

استسلمت لمحاولة إقناعها فهي عنيدة ولا مجال للتغلب عليها، ما إن تقرر شيئا فلا رجعة فيه ولو سقطت السماء على الأرض.

لكن خطرت ببالي فكرة لا بأس بها، حكيت لرغد عما دار بيني وبين علياء وعن عائلتي المتشددة واقترحت أن أتحدث مع أمها أولا فإن سارت الأمور على خير ما يرام سيمنحني ذلك الشجاعة لأتحدث مع عائلتي فوافقت على طلبي.

ابتهجت لموافقة رغد على طلبي، أمها امرأة طيبة جدا لذا أنا أشعر بقليل من الذنب لحملي نوايا سيئة اتجاهها، لكن في الحياة إن لم نحتط من كل شخص سينتهي بنا الأمر مخدوعين من قبل أولئك الذي ادعوا أنهم يحبون الخير لنا ويتمنون لنا الأفضل، فهم أنانيون ويتظاهرون بمعرفة وفعل ما هو في صالحنا لكنهم لا يعلمون أنهم بفعلهم لهذا هم فقط سيدمرون علاقتنا بهم.

أتمنى ألا يكون الكاتب الحقيقي شخصا مقربا منها فذلك قد يعطيها ضربة قوية ستؤثر في حياتها للسنوات القادمة وبشدة، أيها الكاتب أين أنت؟

٦

هل هناك وشاح أحمر في درج كل امرأة؟

اخترنا عطلة نهاية أسبوع من المتوقع أن تكون مشمسة ودافئة لنلتقي فيها مع أمها فالجو يؤثر على نفسية الأشخاص ويتحكم بمزاجهم لذا يوم بجو جيد ومعتدل سيشرح صدرها، تأنقت خصيصا لهذا اليوم فأنا أرغب بالظهور في شكل جيد أمام عائلتها.

انتظرتها أمام بيتها لاصطحابها وفاجأتني بخروجها السريع، أول فتاة أعرفها لا تأخذ وقتا طويلا في الاستعداد ... من النوع الذي يرتدي أول شيء يقع على نظرها عندما تفتح الخزانة، لكن ما إن خرجت حتى عادت مسرعة للمنزل، تذكرت شيئا ما نسته على الأرجح.

عادت وهي تحمل بيد وشاحا أحمر وفي اليد الأخرى كيسا تحاول وضعه فيه بسرعة، فحملت لها الكيس بكلتا يدي لمساعدتها، لكن الوشاح الأحمر بدا مألوفا، رأيته في مكان ما، بنفس التصميم ... طويل بلون أحمر عقيقي ...

تذكرت! علياء تمتلك نفسه، تركته لها والدتها عندما توفيت، أذكر أنه مطرز باسم والدتها باللاتينية في الأسفل، طلبت من رغد رؤيته جيدا فسمحت لي، أمسكت بطرفه السفلي فلم أجد شيئا ثم رأيت الطرف الآخر فوجدت اسما مكتوبا باللاتينية كذلك ... مكتوب ريما.

- من أين لك بهذا الوشاح؟

- إنه ملك أمي، اشتراه لها والدي منذ زواجهما، هي اعتزت واحتفظت به لسنوات لكنها تركته لي عندما تزوجت من جديد، أما الآن ... تعرف ... في الرواية تم ذكر أنني سوف أقتل نفسي به ... لذا أمي قلقت كثيرا وطلبت مني احضاره لأنه فأل سيء ...

اسم والدة رغد كان ريما، يا لها من صدفة، ماذا لو أن والدي يعرف والدة رغد بالفعل؟ لأن علياء لطالما تباهت بوشاحها وأخبرتني أنه مميز، أصبحت أقفز لاستنتاجات غبية وغير معقولة مؤخرا لا بد أنه كان تصميما رائجا آنذاك، علياء لا تعرف الكثير عن الموضة على كل حال.

لم يكن بيت أم رغد بالبعيد عن بيتها، من الغريب أنها لم تكن تزورها إلا نادرا، هي لا ترتاح لزوج والدتها برغم لطفه اتجاهها كما أخبرتني، الآن أشك في زوج والدتها هو شخص محتمل، بدأت في الشك بالجميع أنا على حافة الانهيار، رغد بدأت بنسيان الأمر وهي غير مهتمة الآن بإيجاد الكاتب مثلما كانت، لكنني لن أرتاح حتى أجده.

عندما نزلنا أمام بيت والدتها أعجبت بالمكان، البيت أخضر تماما، النباتات المتسلقة تغطي البيت بأكمله، الحديقة تأخذ المساحة الأكبر، إذا رغد ورثت حب النباتات والزهور من والدتها، من الجميل أن ترث أشياء جميلة من عائلتك كحب الزهور، الرسم أو الموسيقى أجدها

أكثر إثباتا للعلاقة العائلية أكثر من أي جينات وراثية أخرى.

استقبلتنا والدتها بحرارة مرحبة بنا في بيتها ودعتنا للجلوس في حديقتها لدفء الجو، أمها لا تشبهها أبدا يشتركان في لون العينين وقصر القامة فقط ... لكن إن كان هناك تعريف للجمال فهو والدتها، رغم كبر سنها إلا أنها تبدو أصغر مني.

قضينا اليوم بكامله مع والدتها وزوجها، ندمت كثيرا لشكي بشخصين رائعين وطيبين مثلهما، قمنا بالطبخ معا ... كان ممتعا ... رأيت صور رغد منذ أن كانت صغيرة لأيام الجامعة وحكت لي والدتها الكثير من القصص المحرجة عن رغد بينما هي تحاول إسكاتها لكنني طالبت بمعرفة المزيد من القصص عنها، رغبت بمعرفة كل ثانية من حياتها لم أكن فيها معها.

زوج والدتها يمتلك ذوقا فريدا في الأغاني وعرفني على الكثير من الموسيقى الجيدة، لم أرى أي توتر بينه وبين رغد بل رأيت أنهما مقربان عكس ما توقعت، هي تتحدث حوله بأريحية وتعامله كأب لها لكن لم أفهم لماذا رغد قررت ترك هذ الجو العائلي اللطيف والعيش لوحدها، لطالما تمنيت عائلة كهذه، لهم الكثير من الشكر لمنحي شعور الدفء وسط العائلة.

في المساء قبل عودتنا جلست في حديقة المنزل عندما كانت رغد تتحدث مع أمها، دقائق وأتت للجلوس بجانبي ...

– هل أعجبتك رفقة والدتي وزوجها؟

– طبعا، سيكون يوما لا ينسى ... فهمت الآن لماذا لم تشكي بوالدتك وزوجها.

– أرأيت؟ أنا أعلم أنه لا علاقة لهما ... يوما ما سأكتب رواية عن أمي ... بالمناسبة هل الطبيبة التي تقاطعت طرقنا معها في المستشفى اسمها مها؟

– هل تعرفينها؟

– إذا أنا محقة، هي طبيبة أمي ... هي تمدحها جل الوقت ...

– مها طبيبة مميزة لن تجدي مثيلتها، هي تعالج المرضى نفسيا وجسديا.

– لكنني أغار منها، تزعجني فكرة أنها تعرفك قبلي وحتى أنها درست معك.

– سأكذب إن قلت مها كأي امرأة أخرى بالنسبة لي، لكن لا تقلقي بشأنها أنا فقدت تواصلي معها منذ تخرجها، هي أقل مني بسنة، تعرفنا على بعضنا في الجامعة كنت أدرسها بين الحين والآخر ... إلى جانب علياء هي ساعدتني لتخطي صدمتي عندما توفيت حبيبتي وأقنعتني بالعودة لمقاعد الدراسة، هي من أعطتني درسا عندما توفي أول مريض لي وأصبت باكتئاب حاد حينها كدت أترك الطب لكنها قالت: «هل ستخيب ظن مئات المرضى القادمين إليك؟ لو كنت تشعر بالذنب فلتنقذ المزيد بدل التذمر والبكاء متمنيا ظروفا أفضل لما لا تتمنى أن تصبح أقوى؟»

– اقشعر بدني للتو، كل هذا وتقول ألا أقلق بشأنها؟ إلى جانب امتلاكها لشخصية قوية جدا لم أرى فتاة بمقدار جمالها، ربما هي تشفي المرضى بالنظر إليهم بعنينها الزرقاوتين فقط ... يبدو أنها تعرف عنك الكثير لما لم تخبرني من قبل بقصة أول مريض لك؟

– عندما يحين الوقت المناسب ستعرفين كل ما يخصني شيئا فشيئا...

لا تقلقي.

عاد كل منا إلى بيته بعدها، بعد الوقت الرائع الذي منحته لي رغد اليوم اتصلت بوالدي وأخبرته عنها، على غير المتوقع هو وافق بسهولة بل وفرح! مرر لأمي الهاتف ... أعلنت عن موافقتها لي أيضا متشوقة لرؤية زوجة ابنها المستقبلية فوعدتهم بإحضارها لزيارتهم في أقرب موعد.

تعلمت من اليوم أن القفز بالاستنتاجات عن أناس لا أعرفهم ليس بأمر محمود، فالنسخة السيئة التي تضعها عنهم في مخيلتك ليست مسؤوليتهم، لذا بدل قضاء الوقت في الشك بالناس والتفكير عنهم بسوء نية لما لا نعطيهم فرصة أولا لتبرير أنفسهم؟

تحسنت علاقتي برغد وعائلتها، ووالداي مستعدان لتقبلها ... لماذا خط سير الأحداث السعيد هذا مألوف لسبب ما؟ أليس هذا ما يحدث في الروايات قبل أن تنقلب الأحداث ضد البطلين ويبدآن بخسارة ما بنياه؟ لا يوجد ما يمكن أن يقلب الأحداث ضدنا من غير الكاتب الذي أرهقني التفكير به وخصوصا صمته حاليا، هو ينوي على ظهور مفاجئ بلا شك.

ماذا لو أنه يراقبنا بصمت الآن؟

٧

ابنة القمر والشمس يلتقيان.

حان يوم التقاء رغد بعائلتي رغم رفض علياء للمجيء، تحمست أمي للموضوع وصارت تتصل بي كل يوم لتخبرني متى سنأتي للزيارة واستمرت بمناداتها بزوجة ابني، كلمة زوجة أحدث وقعا خاصا في قلبي.

رغد خافت وتوترت أكثر مني، لأول مرة تتأخر في اختيار ملابسها وقامت بتصفيف شعرها أكثر من ثلاث مرات ... لم أعرف أن للشعر القصير الكثير من التسريحات، وترتني معها وهي تسألني عن كيف تتصرف أو ما الذي عليها فعله، في النهاية بعد مناقشات طويلة وعرض أزياء لخزانتها انتهت إلى ارتداء فستان طويل أسود وكعب عال أحمر حتى تبدو أكثر نضجا، رفضت الخروج دون ارتداء شيء واحد أحمر، هو رمز الحظ الجيد بالنسبة لها.

وصلنا إلى بيت والدي ... جرى كل شيء على سلاسة، عرفت كيف تتكلم معهما وتجعلهما يحبانها من البداية، بانطباعها الرقيق الهادئ...

أمي أحبتها للدرجة التي لم تتوقف فيها عن الابتسام لها، حتى سألها والدي ما عملها، قالت كاتبة، نظر والديّ إلى بعضهما البعض ثم طلبا منها العفو لأنهما لم يسمعا بها من قبل رغم ثقافتهما الواسعة عن عالم الكتب.

– في الحقيقة اسمي الفني رؤى... هل سمعتما بي؟

أحسست أن صاعقة ضربت وجه أبي، أمي كادت تختنق من الماء الذي كانت تشربه، همست أمي في أذن أبي بكلمات بالكاد سمعتها لكني متأكد من قولها: «أليست ابنة القمر؟».

فجأة بدآ بتفادينا بوضوح، وطلبا منا الإسراع بالخروج بحجة تأخر الوقت، ما الذي أصابهما؟ رغد أصيبت بإحباط شديد وأحست أنها لم تعجبهما ومررت بوقت عصيب لإقناعها أن رأيهما لن يغير من حبي لها شيئا، واعتذرت لها عن فظاظتهما لكنها استمرت بلوم نفسها لأنها لم تبذل المزيد من الجهد لكسب رضاهما.

بعد إيصالها، عدت إليهما لنصفي حساباتنا، ما الذي يفكران به؟ وأنا الذي ظننت للحظات أنهما تغيرا، ندمت على منح نفسي أملا زائفا عنهما.

ما إن دخلت حتى أنني لم أنبس ببنت شفة، قال أبي إلا هي لن تتزوجها ...

– من طلب رأيك؟ هل أنت من ستتزوجها أم أنا؟

– من فضلك يا أدهم أنا لا أطلب الكثير، يمكنك الزواج من أي فتاة في هذا العالم ما عداها.

– لكني لا أرى أي فتاة في العالم ما عداها، على الأقل قدم لي تفسيرا،

أعطني سببا لماذا لم تعجبك؟

– لا تهم الأسباب يا بني، فقط تذكر كلامي ستكره نفسك فقط إن تزوجتها، أنا قرأت روايتها الأخيرة الفتاة تقدم على الانتحار، لا شك أنها تعاني من مشاكل نفسية.

تذكرت كلام علياء عن عدم مناقشة شخص ما إن كنت على قناعة أن الجدال معه لن يغير من رأيه شيئا لذا تجاهلته وخرجت فليتكلم مع نفسه.

لم أقتنع بسببه التافه عن روايتها، منذ متى أبي يقرأ للروائيين الشباب المعاصرين؟ لا أظن أن علياء قد أخبرته عنا شيئا، وما الذي قصدته أمي بابنة القمر؟ أشعر أنها جملة مألوفة لكن لا أتذكر أين سمعتها.

إلى جانب الكاتب الذي لم ننته من قضيته بعد، ها هي تظهر لنا مشكلة جديدة تقف في طريقنا، بدأت أكره عائلتي المعقدة.

ذهبت للمستشفى، إجازتي ستنتهي في أيام لكن هناك مريض قضى وقتا طويلا هناك سيتم تسريحه اليوم ... أنا متعلق به منذ قدومه رغم أنه صغير في السن ... كلنا فرحنا لتحديه مرض السرطان، التقيت بأصدقائي كذلك وألقيت التحية على الجميع، اشتقت لمرضاي وأوقاتي التي أقضيها معهم.

ذهبت لإلقاء نظرة على إحدى مرضاي، هي فتاة جامعية مصابة بفقر دم حاد جدا، شعرت بالأسف لتركها بينما كانت في أمس الحاجة للرعاية الجيدة، إلا أنها سعدت لرؤيتي وحدثتني بحماسة عن الكتب التي تركتها لها قبل ذهابي وعن طبيبتها الجديدة التي انتقلت منذ أسبوع، لم أعرف أن هناك من سينتقل إلى قسمنا، سألتها عن اسمها فأشارت بيدها لناحية الباب قائلة إنها هنا.

استدرت لأرى مها أمامي فاندهش كلانا ونطقنا في آن واحد «ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

ودعت مريضتي الصغيرة وطلبت من مها الخروج للتكلم قليلا.

– كيف انتقلت إلى هنا؟

– أدهم، هل نسيت حلمي؟ لطالما تمنيت العمل في إحدى مستشفيات العاصمة، لو كنت أعلم مسبقا أنك تعمل هنا لطلبت مساعدتك في الانتقال.

– إذا أنت غيرت مقر سكنك؟ ألم تتزوجي من حبيبك؟

– هل تراني أضع خاتما؟ لقد انفصلنا منذ وقت طويل بحجة أنه لم يعد يحبني بعد الآن.

– لا أصدق ذلك! ألم يهددك برمي نفسه من آخر طابق في الكلية إن رفضت مواعدته مجددا؟

– كل هذا من الماضي.

تحاورنا لساعات، حدثتني عن سبب قطع تواصلها معي بسبب حبيبها السابق الذي كان سيفتعل مشكلة معي وعن وفاة كلبها الذي تبنيته معها في أول سنة من الجامعة ووفاة أول مريض لها متأسفة عن قسوتها تجاهي عندما مررت بنفس تجربتها فهي فقط الآن فهمت شعور العجز الذي يحس به الطبيب، لكنها أقوى الآن.

حدثتني كذلك عن بعض المرضى الذين تحتاج مساعدتي لتشخيص حالتهم، أخبرتها أيضا عما يجري في حياتي، عن رغد والرواية وتأسفت لها عن محاولة تفاديها في المستشفى ذلك اليوم، تفهمت موقفي ووعدتني بالتفكير معي في خطة لإيجاد الكاتب.

لو تسمع رغد أني تحدثت مع مها من جديد ستغضب بلا شك، لذا لن أخبرها عنها حاليا حتى أسوي الوضع مع عائلتي.

مها لم تتغير طوال السنوات الماضية، ما زالت تخطف قلوب الرجال من حولها دون أن تفعل شيئا، هي ولدت من عرقين مختلفين، والدتها روسية ... لكن والديها تطلقا منذ أن كانت صغيرة ومن حينها عاشت مها مع والدها.

هي نسخة طبق الأصل عن أمها بشعرها الذهبي وعينيها البلوريتين، ما زالت بشرتها شاحبة جدا مما تسبب ببروز عروق يديها ... سمعت مرة أن الفتيات ذات العروق البارزة تكون مشاعرهن رقيقة وصادقة كطبيب لا ينبغي علي تصديق هذه الخرافات لكنهم محقين نوعا ما.

ستطالبني رغد بالانتقال إلى مستشفى آخر إذا اكتشفت عمل مها معي، كيف أقنعها أنها الأجمل في نظري، أرغب في كسب ثقتها وبشدة.

فهل الحب وحده كاف لكسب الثقة وإزالة كل الشكوك؟

٨

عندما يذهب الظلام تكتشف الحقيقة.

انتهت إجازتي وعدت للعمل، لم أر رغد من يومها، اكتفينا بالتحدث عبر الهاتف فقط، تواصل قول «أنا بخير» لكن ذلك لم يقنعني.

ذهبت إلى المستشفى، أنهيت مواعيدي ثم ذهبت لعيادتي الجديدة، ما زلت لم أفتحها بعد، فقط بصدد تعديلها وشراء المعدات .. لم أدخلها لمدة شهر لذا ذهبت مجهودات تنظيفي أدراج الرياح، قضيت وقتا أتفقد المعدات التي اشتريتها ثم عدت للبيت بعد يوم طويل، لمست الباب فوجدته مفتوحا! من يكون في الداخل؟ علياء بلا شك ... لكني دخلت بحذر رغم ذلك حاملا المزهرية التي كانت بقرب الباب، من يعلم ربما هناك من يحتاج لأن أحطم رأسه هنا ... ماذا؟

- أمي ما الذي تفعلينه هنا؟ متى أتيت؟

- كنت أود الحديث معك منذ أيام لكنك هربت بعيدا بعد شجارك مع والدك لذا انتهى بي الحال في منزلك، علياء من علمتني كيفية

الدخول.

– يجدر بي زيادة الحماية في منزلي بسببكم يا رفاق.

طلبت منها الراحة في غرفة الجلوس، حضرت لها بعض الشاي الذي تحبه، ورثت حبه منها، لكن ما الذي أتى بها إلى هنا؟ لم تزرني منذ وقت طويل، يا ترى ما الذي ترغب بقوله.

قدمت لها الشاي بعد إضافتي له قطع جليدية لأنها تفضله باردا جدا، قامت بشرب كأسين وفي صدد شرب الثالث ولم تتحدث بجدية سألتني عن كل شيء عن حالي، حال رغد، حتى كلب الجيران الذي أخبرتها أني لا أستطيع النوم بسبب نباحه ليلا سألتني عنه، لكنها لم تدخل في صلب الموضوع الذي تريد التحدث معي بشأنه أبدا، لا يمكن أن تكون قطعت كل الطريق لتسألني عن كلب.

– أمي فلتدخلي في صلب الموضوع من فضلك ما الذي ترغبين في التحدث بشأنه؟

تنهدت تنهيدة طويلة، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها كتابا ثم وضعته على المنضدة، إحدى روايات رغد، اسمها «أستروفيليا» ...

– هل قرأت هذه الرواية؟

– بالطبع، قرأت كل روايات رغد، إنها إحدى كتاباتها الأولى، هي مختلفة بوضوح عن رواياتها الأخرى ... حتى أنني أضع مقطعا منها على صفحة حسابي ... «رفعت يدي أعد النجوم، عند النجمة التاسعة والعشرين أوقفني ... قال: لا تعديها ستسقط في عينيك ... فقلت: إذن هل سأصبح نجمة؟» ... تعلمين كم أحب هذا المقطع.

– إذا لن يكون صعبا شرح القصة لك يا بني، ببساطة ماذا لو قمت

بتبديل اسم البطلين في القصة بعلي وجميلة؟

لم أفهم المغزى من كلام والدتي، أليس اسم والدة علياء جميلة؟

– ألم تفهم بعد؟ حسنا سأحكي لك حكاية مر عليها أكثر من أربعين سنة فلتحمل كأس الشاي واسمعني ...

قبل سنوات عديدة في خمسينيات القرن الماضي، كانت هناك امرأة فريدة من نوعها، امرأة على غير النساء الأخريات، اسمها جميلة، اسم على مسمى، لم تأخذ نصيبها من الجمال فقط، بل الذكاء أيضا، امرأة ذكية وجميلة، تكاد تكون مثالية ... أي رجل قد يقع في حبها، لكنها وقعت في حب الرجل الخطأ، شخص لم يكن على القدر أن يلقي بها إليه.

أحبت ولدا اسمه علي، لاقاهم الحب من أيام المراهقة، حبهما لم يكن بسيطا، كان قويا ... أحبا بعضا أقوى مما قد تصفه أي رواية، أعمق من أي حبيبان وأوفى أكثر من أي زوجين، هما فقط انعزلا عن العالم وأصبح كل منهما يرى نفسه في الآخر، وهكذا شقا طريقهما مع بعض مصارعين الظروف، لكن جميلة الذكية كانت تنسى نفسها مع علي، تصبح طفلة بين يديه، صحيح أن الحب يجعلك مغفلا أحيانا.

هكذا شاء القدر أن تحمل منه قبل أن يقوم بخطبتها حتى، قبل أن تربطهما أي علاقة زوجية هما ارتكبا خطأ لا يمكن تصليحه، درجة ثقتها به لا يمكن أن توصف، لم يخذلها أو أي شيء فلطالما أراد الوفاء بوعده بالزواج منها لكنها لم تخبره أنها حامل أبدا، استمرت فقط بالطلب منه الإسراع بالمجيء لطلب يدها، كان فرحا لمباشرتها بسؤاله عن ذلك خاصة مع رغبته الشديدة في تصليح خطئه لذا أسرع لوالدها.

لكنهما اصطدما بالواقع حالا، والدها رفض رفضا قاطعا زواجها

من علي، بسبب شجار قديم بين العائلتين، وما زاد الأمر تعقيدا سماع والد علي بتقدمه لطلب يد ابنة عدوه فاستشاط غضبا وتشاجر مع علي.

والدها كره علي بسبب والده قبل أن يتطرق ليتعرف عليه ويستحيل لابنته أن تخبره حقيقة كونه حبيبها أو أنها حامل سيذبح علي ويشرب دمه أمامها ناهيك عن ما قد يفعله بها، كانت مسألة وقت حتى تبدأ بطنها بالبروز، كان عليها التصرف بسرعة وإيجاد حل في شهر.

خططت هي وعلي للهرب بعيدا لكن علي كان أجبن من أن يفعل ذلك، في النهاية لم يكن قادرا على التخلي عن كل شيء من أجلها مثلما فعلت، خصوصا أنه لم يعلم أن ابنه في بطنها، رفض أخيرا خطتها قائلا: «جميلة هل علينا الذهاب إلى هذا الحد؟».

في هذه الأثناء تقدم شاب اسمه كريم لخطبتها من العاصمة أتى للعمل بمدينتها ورآها ففتن بها قبل أن يكلمها حتى، ومن لم تعجبه جميلة؟ والدها وافق عليه على الفور دون تردد، لم يوافق لأن كريم كان مستقرا ماديا أو أنه استوفى جميع شروط الزوج المثالي، بل لأن والدها رأى فيه الملاذ الجيد للتخلص من علي، فوافق دون أن يستشير جميلة في ذلك.

بما أنها كانت يائسة من رفض علي الهروب معها مشت في الطريق الذي اختاره لها والدها، قررت الموت على يد هذا الشاب يوم عرسها بعد أن يعرف سرها، مع ذلك لم تتوقف عن إرسال الرسائل لعلي أو الالتقاء به، رغم قرب عرسها، والدها كان فرحا على إصرارها على المسارعة للزواج ظنا منه أنها كرهت علي ورأت لونه الحقيقي، كان فخورا بابنته بينما لا يعلم ولو جزءا من الحقيقة المخفية.

لكن جميلة ما زالت تحب علي، أخيرا تفهمت سبب عدم هروبه

معها، فلو هربا والديهما بقوة نفوذهما ما هي إلا أيام ويجدانهما لا محالة ولن تتعقد إلا الأمور بعد ذلك ...

اقترب يوم العرس وعلي يراقب من بعيد من قضى معها مراهقته وشبابه، يأخذها من يديه شخص مجهول ... آخر ما تمناه يحصل أمام عينيه ... كابوس حياته، كان خائفا من الذي سيحصل لكنه لم يحرك ساكنا، كان عاجزا وأحس بالضعف، كان جبانا، لم يكن قويا بقدر جميلة التي تحكمت برغبتها في سبيل إنقاذ جنينها ...

هكذا وصل يوم عرسها، لم تكن كأي عروس، فارقتها الابتسامة وتركتها السعادة، لم تستمتع ولو بلحظة من عرسها الذي حلمت به منذ وقوعها بالحب، ليس سهلا تقبل فكرة الزواج من شخص لم تربطك به أي كلمة من قبل ... ليس سهلا الزواج بشخص لا تحبه.

مر عرسها كالجحيم، الأصوات الصاخبة التي ترددت على مسامعها زادتها اكتئابا، سمعت الأغاني كلحن للموت ورأت حناء يديها توقيعا على موتها الوشيك.

وصلت اللحظة الحاسمة أخيرا ... جميلة وكريم لوحدهما بعد أن افترق المدعوون وأكملوا مراسم العرس، كلاهما ينظر للآخر، إلا أن كل نظرة منهما مختلفة، نظر لها كريم نظرة حب وفرح بينما هي نظرة حزن وأسى، استجمعت جميلة كل ما لها من شجاعة وجرأة في حياتها كلها ووظفتها في كلمتين قالت له: «أنا حامل».

كريم كاد يموت من قوة الصدمة لم يعرف ما عليه فعله فهذا آخر موقف قد تخيله يحدث بينهما، طلبت منه قتلها إن أراد أو رميها هي لا تهتم بعد الآن، أعطته حرية التصرف بشأنها طلبت منه حتى جرها خارجا والصراخ للجميع أنها ملوثة ... غير شريفة ... أي ما

يريد فعله فليفعله.

لاحظ يأسها الشديد القابع في عينيها، هي لم تبك أبدا، كانت عيناها فارغتان ... عينا شخص فقد الأمل في الحياة، خرج كريم ولم يعد إلا فجرا، كاد يقتل نفسه، لم يتقبل قدره القاسي ... خرج وذهب بعيدا ليصرخ بأعلى ما يمكنه، كان من البداية لديه شك في قبولها بسرعة الزواج منه وتعجلها لإقامة العرس، بعد معرفته السبب تمنى لو لم يقدم على خطبتها من الأساس، وندم على التقدم لفتاة لم يتحدث معها من قبل.

عندما عاد وجدها لم تتحرك ولو خطوة ما زالت ترتدي ثوب زفافها جالسة في نفس المكان لكنها كانت تبكي هذه المرة، تبكي بقوة وترتجف، أعطاها كريم بعض الماء وأحضر كرسيا ليجلس مقابلا لها مطالبا منها أن تحكي له قصتها من البداية، بهذا حكت جميلة له كل ما حصل من أول يوم تعرفت فيه على علي إلى يوم العرس، بعد الاستماع لها قرر ألا يفضحها أو يكشف سرها ولن يطلقها لكن بشرطين.

الأول ألا تخبر علي بأن من في بطنها ابنه، بل سيربيه هو على أساس والده الحقيقي، وثانيا لن يطلقها لكنه لن يلمسها كذلك طيلة حياتهما، طلب منها أن تكون حبيسة له إلى موتها، وأن تنسى علي نهائيا.

جميلة كانت غليظة الرأس استمرت بالالتقاء مع علي من وراء ظهر كريم عدة أيام لأنها استمرت بالقلق عليه بعد أن سمعت بمحاولته قتل نفسه يوم عرسها ... حتى بدأت بطنها بالبروز، أخبرته مثلما طلب منها كريم بالضبط، وهنا كانت النهاية لهما، عندما عرف علي بأن جميلة حامل، قرر عدم الالتقاء بها أو الحديث معها مجددا للأبد، كأنه استفاق للتو أن جميلة متزوجة ولم تعد حبيبته بعد الآن.

جميلة كانت تكتب في مذكراتها يوميا عن حياتها وما يحصل لها، في مذكراتها وصفت كريم بالشمس، لأنها بدأت تنسى علي عندما تقضي معه وقتها في النهار، كان يكون لطيفا تارة وأحيانا يصبح باردا تجاهها، قضت معظم نهارها في محاولة فك شفرة شخصيته، قررت كسب رضاه فهو منقذها بعد كل حال، من قد يربي ابن شخص آخر؟ هو شخص لن تجد مثيله في مليار نسمة.

أما علي كان القمر بالنسبة لها، عندما يأتي الليل وتبقى بمفردها تتذكره ... واستمر الوضع على هذا الحال إلى أن أنجبت طفلة، أخبر كريم والديه أنها أنجبت ابنتهما على سبعة أشهر على غير المعتاد، البنت التي أنجبتها نسخة طبق الأصل عنها أسمتها «علياء»، فرح كريم بالطفلة كأنه والدها الحقيقي وفرح لرؤية الشبه الكبير بينها وبين والدتها لأنه كان خائفا من أن تشبه علي، لم يرغب في حمل الكره لفتاة لا علاقة لها بأخطاء والديها.

في هذا الوقت عندما تردد على مسامع علي الخبر، قرر المضي في حياته أيضا، لذا تزوج من امرأة عرفته عليها والدته اسمها ريما، هي امرأة تجيد كل شيء، كانت أفضل من جميلة بكثير لكنه رآها أقل بكثير، لم يرى الكمال إلا في جميلة، لكنها لم تقدر أن تكون له لا هي ولا ابنته التي لم يعرف بشأنها.

ريما كانت أجمل من جميلة بمراحل، إن كانت جميلة تكاد تكون مثالية فربما ريما مثالية ... لكن للأسف ذلك لم يكن كافيا لجعل علي يحبها فباءت كل محاولاتها لسرقة قلبه بالفشل، تمنت لو يحكي لها عن ماضيه إن أمكن لكنه لم ينشرح لها يوما.

أما جميلة التي لم تحب سوى شيئين في حياتها، الفلك ... عشقت

السماء والنجوم والكواكب وأحبت علي التي كانت تراه كوكبا جميلا يسبح في فضاء حبها، لكن دخل كويكب جديد إلى فضائها، ابنتها الجميلة علياء التي رغبت بشدة أن ترث منها حبها للنجوم بدل وجهها.

أحبت اعتناء كريم بابنتها كأنها ابنته، حتى كادت تصدق أنها من لحمه ودمه ... وصفت في مذكراتها أن كريم أحب علياء بقدر عدد النجوم في الكون، رغم إحساسها بوخز في قلبها كل ما تذكرت علي، أليس من حقه التعرف على ابنته؟ لكنها استمرت في الوفاء بوعدها لكريم.

استمرت في كتابة يومياتها، جزء منها قرر الوفاء لكريم لأنه شاركها شيئا لم يشاركها إياه علي وهو حب النجوم، أحب السماء والنجوم والشمس والقمر أكثر منها ووجدت أن ثقافته حولهم أوسع منها بكثير لذا تعلمت منه العديد من الأشياء وأشبعت فضولها، كانا يقضيان وقتا طويلا يتحدثان عن الفلك لكن قلت أحاديثهما عندما أصيبت جميلة بالمرض، اعتبرته وقت عقابها، لذا بدل أن تبذل ما بوسعها للشفاء استسلمت للمرض.

قبل موتها قامت بعمل نسخة ليومياتها وأرسلتها لعلي خفية أما الأصلية أعطتها لكريم طالبة منه الاعتناء بعلياء جيدا قبل موتها، اعترف كريم لها بمشاعره تجاهها وعن مقدار حبه لها ولو كان ذلك متأخرا للغاية وفي غير وقته ... في مساء أمسية خريفية جميلة رحلت.

أما بالنسبة للنسخة التي أرسلتها جميلة لعلي من مذكراتها فقد وقعت في يد ريما، زوجة علي التي لم تكن قادرة على الإنجاب حينها، كانت خائفة من احتمالية إحضار علي ابنته للبيت بعد أن سمعت بموت جميلة، لذا هي خبأتها بعيدا عنه بحيث لن يجدها مطلقا، لكن

لم تقدر على حرقها أو التخلص منها.

بعدها بحوالي سنتين تزوج كريم من جديد مع امرأة أخرى ليقدر على رعاية علياء، تزوج بعزيزة التي لم تتزوج من قبل، قريبة له أحبته من طرف واحد منذ الصغر، بعد أن سمعت بتفكيره بإعادة الزواج اغتنمت الفرصة التي انتظرتها لسنين، لم تعرف حينها أن علياء لم تكن ابنته، لذا ربتها وأحبتها كثيرا كونها قطعة من كريم رغم ألمها كل ما رأت فيها وجه المرأة التي أحبها زوجها، أنجبت لها أخا اسمه أدهم، أخا لا تربط بينهما أي صلة دماء ...

علي وريما أيضا استطاعا إنجاب طفلة بعد جهد أسمياها رغد، وهكذا نسيت كلتا العائلتين الماضي واستمرا بالعيش في هناء سنوات طويلة، حتى أتى يوم عصف بالعائلتين.

وقعت مذكرات جميلة في يد علياء أثناء حزمهم لأغراضهم من أجل الانتقال لمنزل جديد، كانت الحقيقة أكبر من أن تتقبلها علياء، كيف أن كل حياتها كانت كذبة، كانت بالعشرين، لذا هي عاشت طوال حياتها مع شخصين ليسا بوالديها تماما ... صحيح أنها تعرف أن عزيزة ليست والدتها ولكن ماذا عن كريم؟ وأخ لا تربطها به علاقة دم ... هي عاشت حياة مزيفة لعشرين سنة، لم تتمكن من الصبر حتى تكمل قراءة جميع المذكرة ... كان عليها فعل شيء لتخرج الغضب الذي بداخلها.

أول شخص ذهبت له للتأكد منه كانت عزيزة ... حسنا فعلى الأقل عزيزة لم تكذب عليها وأعلمتها منذ الصغر أنها ليست والدتها ... على الأقل جزء من حياتها حقيقي ... لكن عزيزة نفسها لم تكن تعلم بالقصة ولم تفهم ما تحاول علياء قوله أو الوصول إليه، حينها أدركت علياء أنها

ليست الوحيدة التي لم تعلم الحقيقة ... لم يتم خداعها لوحدها، لذا منحت المذكرات لعزيزة.

في الواقع عزيزة انصدمت أكثر من علياء نفسها وبكت على حالها ... إذا الفتاة التي تفانت في تربيتها هي ابنة شخصين آخرين غريبين تماما عنها، اتحدت علياء وعزيزة لإيجاد حل وفك الغموض، كان عليهما سلك إحدى الطريقين إما مصارحة كريم أو نسيان الأمر، لكن فضول الإنسان يجعله يختار أصعب الطرق دائما، لذا هما فقط منحتاه المذكرات مباشرة وطالبتاه بتفسير ... وضعاه في موقف لا يحسد عليه، لم يكن لكريم أي طريقة أو كذبة للهروب من الموقف، لذا حكى لهما الحقيقة كاملة.

لم تكن حكاية كريم وحدها كفيلة بإشباع فضول علياء، رغبت بالالتقاء بوالدها البيولوجي في أقرب وقت، لم يجد كريم منفذا منها مع تهديدها له بالهرب من المنزل أو قتل نفسها، لذا تواصل مع علي واعترف له بالحقيقة التي لم يصدقها في البداية، لكن بعد إجراء التحاليل اتضح أنها ابنته حقا ... بعد اكتشاف علي للحقيقة كان خائفا من مصارحة زوجته ريما ووجد صعوبة في إخبارها وخاف أن تسمع ابنته رغد بذلك فيخيب ظنها بوالدها.

تشجع علي وجمع شتات نفسه، انفرد مع ريما وحكى لها القصة كاملة مؤكدا على ضرورة إخفاء الأمر على رغد ... لكن جواب ريما آخر ما توقعه ببساطة هي أجابته ب: «نعم، أنا أعرف هذا بالفعل»، جن جنون علي وطالبها بتفسير فمنحته نسخة المذكرات.

أحس علي بخداع الجميع فالكل حاول إخفاء الحقيقة عنه لذا أصبح لا يثق بأحد، بعد تفكير مطول قبل أن يصل لحافة الجنون سامح ريما

على إخفاء المذكرات فهي أم ابنته كذلك، هو يحب رغد أكثر من أي شخص في العالم، أحبها أكثر من جميلة ... هذا كاف لوصف مقدار حبه لابنته، كانت من لون حياته وملأ فراغه العاطفي لذا لم يرد أن يسيء لوالدتها.

التقى بعلياء عدة مرات وعرض عليها الانتقال للسكن معه، علياء فكرت مليا، هل تبقى مع كريم وعزيزة اللذان أحباها أكثر من ابنهما الحقيقي؟ أم مع علي الذي لم تعرفه من قبل وزوجته وابنتهما؟ أليس الطريق الصحيح والأسعد واضحا؟ هي رفضت عرض علي قاطعة بهذا كل علاقة معه وعادت لكريم ... لكن من يومها تغير شيء في علياء ... قلبها لم يبقى كما كان ... من يومها لم يسمع منها كريم كلمة أبي، آله ذلك لكنه تقبل موقفها ... كان كافيا بالنسبة له قرار تخليها عن والدها البيولوجي من أجله.

لكن بعد سنتين من هذه الحادثة، ظهرت فجأة رواية بعنوان «أستروفيليا» ... «مذكرات امرأة أحبت النجوم»، تم تغيير أسماء الشخصيات لكن لا مجال للشك أنها نفس مذكرات جميلة، نشرتهم روائية اسمها رؤى ... علياء فعلت المستحيل لتجد هويتها، لكنها عرفت جيدا من أين تبدأ البحث ولم تخطئ ... هي شكت بريما لكن لم تكن هي الفاعلة، من نشرتهم كانت ابنتها رغد ... لم تفهم علياء دافع أختها غير الشقيقة بفعلتها هذه، علياء كرهت رغد ... رأت فيها النفاق، الكذب والسرقة وكل ما هو فاسد.

- حسنا تنتهي القصة هنا يا بني، هذا كل ما أعرفه.

لم أستطع تصديق ما تسمعه أذناي، سقط الكأس من يدي في منتصف حديث والدتي ... أنا قرأت الرواية مسبقا وأعرف نصف

الأحداث حتى موت جميلة، لكن لم أعتقد قط أن والدي إحدى أبطالها الحقيقيين أو أنها مقتبسة من قصة واقعية، لكن لماذا نشرتها رغد؟ أبسط حل كان سؤالها مباشرة، لا وقت لدينا للتفكير مجددا وإخفاء الحقائق ... أتمنى لو تكون رغد لا تعرف بذلك وأخفته عني.

لم أقو على الانتظار فأسرعت بالخروج متجاهلا صراخ أمي آمرة إياي بالتوقف، اتصلت برغد قائلا لها: «أنا قادم حالا».

أسرعت بأقصى ما يمكنني للقائها في أقصر وقت، وصلت لبيتها على آخر نفس ... لم أركن السيارة جيدا ودخلت مسرعا ... ما إن فتحت لي الباب حتى سألتها مباشرة بنفس متقطع.

- هل كنت تعرفين؟
- ما الذي تتحدث عنه؟
- هل كنت تعلمين أن علياء أختك وليست أختي؟

اندهاش رغد لم يكن أقل مني أبدا، بل ربما أكثر ... لم تعلم شيئا من هذه القصة، لم تكن تعلم أن لها أختا ... كل ما كان عليه الأمر أنه بعد جنازة والدها بينما كانت توظب أغراضه وجدت نسخة المذكرات، لما سألت والدتها عنهم كذبت ربما مجددا مسببة بذلك مشكلة أخرى، قالت أنها رواية كتبها والدها على شكل مذكرات ... والدها لطالما أراد أن يكون روائيا لكنه لم يحقق الحلم، لذا كان سعيدا أن ابنته حققته من أجله، رغم فشل عملها الأول باسم رغد، إلا أنها عادت بقوة بعمل آخر باسم جديد ... لذا لطالما افتخر بها قبل وفاته.

بعد أن أتمت قراءة المذكرات أرادت نشرهم ليرى العالم كلمات أبيها لذا استبدلت أسماء الشخصيات بأسماء جديدة تجذب الاهتمام أكثر

بنصيحة من أمها، لكنها لم تدرك أنها كلمات شخص آخر، أسمتها أستروفيليا لأن جميلة عشقت النجوم كثيرا ...

وأستروفيليا معناه حب النجوم والكواكب والتعلق بالسماء، رغد شكت بالفعل في مصداقية أقوال أمها خصوصا عندما نصحتها بتغيير أسماء الشخصيات لكنها فوتت الأمر حينها، أولا اسم جميلة لم يتم ذكره في المذكرات أبدا، كانت تتحدث دائما باسم أنا، ولم تعرف رغد من يكون كريم، بالإضافة جميلة لم تذكر اسم ريما أبدا لأنها لم تكن تعرفها شخصيا وصفتها في المذكرات فقط باسم زوجة علي، لذا صدقت رغد أن والدها رغب في أن يكون بطل رواية ما، في نظرها كانت فعلتها سعيا لتحقيق رغبة والدها لكن الواقع كان أقسى من ذلك.

وضعي مع رغد أصبح غريبا، لم أعتقد أن علاقتنا معقدة هكذا، علاقتنا كان مقدرا لها التعقد قبل ولادتنا حتى، نحن نتحمل الآن مسؤولية آبائنا، كيف عشت لأكثر من ثلاثين سنة مع امرأة ظننت أنها أختي بينما ليست كذلك؟ ولم تتعب نفسها بإخباري الحقيقة ولو ليوم.

كان على رغد التحدث مع والدتها في الموضوع، لذا تركتها لتسوي الأمور بنفسها مع أمها، هذه المرة عندما افترقنا لم تكن كسابقاتها لم نقل لبعض «سأراك عما قريب».

عدت للبيت منهكا، حاولت النوم لكن لم أستطع فبقيت أنظر لسقف غرفتي الليل بطوله، أيقنت أن القدر كان يرسل لي تنبيهات من البداية لكن لم أنتبه، أولا لم أتعرف على رغد قبل ثلاث سنوات بينما كانت أمامي، ثم العقبات التي واجهتنا حتى تعرفنا على بعض والآن علاقة عائلتينا المشؤومة.

لكن من يكون الكاتب؟

٩

الحزن سيدوم للأبد

من فان جوخ إلى أخيه ثيو.

اضطررت الذهاب في الصباح إلى المستشفى على مضض، كيف أداوي المرضى وأنا مريض نفسيا ... التقيت بمها فلاحظت تغير حالتي وأني لست على ما يرام فاستمرت بسؤالي عن حالي دون توقف، لست قادرا على الكلام لكنها من النوع المصر، فاستسلمت لطلبها في النهاية، في الحقيقة أنا أكذب ... كنت بحاجة بشدة لشخص لأفرغ له قلبي لعل الثقل ينقص عني.

حكيت لمها كل ما حدث، كما توقعت ... اندهشت من مدى تعقد الأحداث، أنهيت كلامي واضعا رأسي بين يدي، ربتت مها على ظهري لمواساتي ثم قالت: «لكن ألا يعني هذا أن علياء الكاتبة؟»، نظرت لها نظرة خاطفة والاندهاش يعلو وجهي، كيف فاتني هذا؟

-مها فلتأخذي مكاني في مناوبة اليوم من فضلك لدي عمل أقوم

به... إلى اللقاء.

- انتظر! أين أنت ذاهب؟ أنا فقط افترضت ذلك ...

نظرية مها صحيحة فعلياء كرهت رغد من البداية، كانت سبب رفضها للعيش مع علي أولا، كانت خائفة من أن يتم تفضيلها عليها ثم أتى اليوم الذي خرجت فيه رواية أستروفيليا، عندما علمت أن الناشرة رغد حقدت عليها أكثر، لكن لم تتجرأ حينها على رفع دعوى ضدها أو أي شيء، فرغد امتلكت المسودة الأصلية كذلك لذا لا جدوى من الخوض في معركة لا ربح فيها، بعد ذلك علياء أصبحت خائفة في كل مرة تنشر فيها رغد رواية، لذا كانت أول من يشتري رواياتها.

ذات يوم بينما تركت إحدى الروايات على مكتبها وجدتها أنا، ومن هنا بدأت سلسلة كره جديدة بالنسبة لها، لا بد أن اهتمامي الكبير برغد أزعجها وكيف كنت معجبا بما تكتبه ... لذا رفضت باستمرار مساعدتي على إيجادها بينما تعرفها كل المعرفة، كرهت فكرة أني معجب بعدوتها بينما لم ألتق بها حتى، أحست أن رغد سرقت كل الحب الذي كان يفترض أن يكون من نصيبها ...

ذات يوم رأت علياء رغد في المستشفى، كانت مهووسة لتعرف سبب مجيئها ... بعد استجواب الممرضات لا بد أنها عرفت أني أجريت عملية لريما، لذا خافت أن أتوصل للحقيقة وأكتشف السر، عندها لاحظت تردد رغد على المستشفى عدة مرات فأكثرت هي من المجيء لزيارتي دون سبب كذلك حتى لا تمنح أي فرصة لرغد بالتحدث معي.

لذا لا بد أن فكرة راودتها ... ماذا لو تكتب رواية تكشف فيها عن خصوصية حياة رغد، مثلما فعلت بمذكرات والدتها؟

بدأت بمراقبة رغد لعدة سنوات حتى تأكدت من أنها جمعت كل معلومة عنها ثم كتبت رواية طويلة عما جمعته وجعلتني البطل، فبهذا في حال تعرفي على رغد ستشك بي وتكرهني ... هذا ما خططت له بلا شك.

عندما أصررت على طلب مساعدة علياء، ادعت الجهل ثم قبلت طلبي وفكرت في كذبة لتخبرني بها عن كيف وجدت المعلومات بينما هي من كتبتها منذ البداية.

أرادت مساعدتي لرؤية رغد ثم تركي في الفخ، لكن ذهب كل شيء عكس ما خططت بل ساعدتنا على التعلق ببعض.

لكنها من ناحية ما كانت مرتاحة لأنها تعلم أن أبي يستحيل أن يسمح لي بالزواج من رغد لأنه مثلما كرهت هي رغد كره هو علي، يعرفان شعور بعض جيدا، يرون عائلة رغد نقطة سوداء في حياتهم.

لذا تسترا على الكثير من الأسرار، أما إصراري على الزواج من رغد يغضبها ... يفقدها صوابها ... ما خططت له لسنوات انتهى بمساعدتنا بدل التفريق بيننا، ورثت حظ أمها العاثر بلا شك.

إذا حصلت لك مشكلة من وراء ظهرك ولم تعرف الفاعل ... ذلك الشخص الذي تقول عنه ... «مستحيل أن يفعلها» ... نعم، يجب أن تشك به أيضا.

هل سأتمكن من الثقة بالآخرين بعد اليوم؟ لن أخبر أحدا مجددا عن أي شيء جميل أعتز به وأحبه، فعلى ما يبدو ليس للجميع حسن النية.

١٠

الكذب أكثر مرارة من الحقيقة.

أنا غاضب حقا، أخفت حقيقة أنها ليست أختي، وتلاعبت بي ... اتصلت بها وأنا أرتجف .. ردت بعد الرنة الثالثة ..

- هل أنت في البيت؟

- نعم، ماذا ...

قطعت الخط واتجهت لها مباشرة ... وصلت لبيتها بقيت أرن الجرس وأدق الباب بقوة، اليوم يوم عطلتها أين يمكن أن تكون ألم تخبرني أنها بالبيت؟ حتى بدأت بالصراخ .. «علياء أعرف أنك بالداخل افتحي الباب قبل أن أقوم بتحطيمه» ... لحظات وتفتح الباب ببطء ... فتحته ثم انسحبت خطوات للوراء تحمل بيدها وشاحا أحمر، ترتجف وتبكي، لم أرها تبكي بهذه الهستيرية من قبل أبدا لكن غضبي كان أقوى من دموعها وخوفها ... ما جذب انتباهي هو الوشاح الأحمر المطابق للذي تمتلكه رغد، لابد أن علي من منح كلا من الوشاحين لريما وجميلة سابقا

فورثتاه ابنتاهما ...

- فلتشرحي لي الأمر الآن ...

مع صياحي عليها بدأت في الشهيق أكثر حتى سقطت على الأرض، كلما حاولت مساعدتها على النهوض تعود لتسقط مجددا، ثم جلست معها على الأرضية وطالبتها بتفسير، صوتها انقطع وبدأت بالتنفس ببطء لكن لم تنطق ... مما أثار أعصابي حتى أوشكت على خنقها لكن تحكمت بنفسي وعدت للوراء، إلا بعد مضي من الوقت تكلمت ...

- قالت لي عزيزة أنها حكت لك كل شيء.

- نعم أنا أعلم ما تعلمين الآن.

- لا أنت لا تعلم ذلك ... أنت لا تعلم شيئا، لا تحاول قط أن تتصرف كأنك تفهمني أو تصب غضبك علي دون الاستماع إلي ...

- لا يوجد أي مبرر يجعلك لا تتمنين الخير لأحد سوى أنك تمتلكين عقدة النقص، لطالما كانت الظروف عذرا ..

- توقف عن مطالبتي بتفسير وأنا تحت هذا الضغط، أنا أشعر بثقل في قلبي وفي جسدي كله ... اليوم الذي عدت فيه بعد مقابلة أبي البيولوجي ثم عودتي لمنزل كريم، عندما رأيتك ... أنت لم تكن أدهم الذي عرفته من قبل، فجأة لم تبق أخي الذي اعتدت العيش معه، اتضح أننا غرباء ... فكان هذا يخنقني، أعيش مع غريب يعاملني كأخته مثل الأبله، حاولت في البداية أن أستمر بالعيش مثلما عهدت لكن للأسف نظرتي حينها نحوك تغيرت للأبد، أتعلم من حرض والدي على رفض حبيبتك السابقة؟ كانت أنا ... نعم أنا من فعلت ... همست لهما قائلة ماذا لو أدهم يقوم بخطأ علي وينجب بنتا؟ حينها والدتك جن جنونها

وأنا فرحت، أعلم أننا لسنا مقدرين لبعض، لكن على الأقل إن لم تكن لي لن تكون لأحد.

– علياء ما الذي تقصدينه أنت تكذبين أليس كذلك؟ إذا أفعالك لم تتوقف عند كتابة رواية «أنا» وحسب، لكنني ما زلت أريد تفسيرا مفصلا ...

– أكذب؟ هل تكذبني الآن في أول يوم أتفوه به في الحقيقة؟ هل تعلم كم كان الكذب مرا؟ أنا فقط كنت سأحاول الانتحار الآن بوشاح أمي مثلما ذكرت في الرواية ... أنا لم أرك كأخي أبدا في العشر سنوات الماضية، أحببتك من طرف واحد، لماذا تظن أنني انتقلت للعيش وحدي؟ لماذا لم أتزوج؟ ولماذا اخترت مهنة أكون فيها مشغولة جدا؟ كل هذا لتجنبك لسنوات بلا فائدة، أنت بنفسك كنت تقول دائما نحن نبدو كأصدقاء أكثر من إخوة، ألا تعلم أن الصداقة بين الرجل والمرأة هي مجرد حب في ظروف مستحيلة لأحد الطرفين؟ ... بوضع اعتقادك أنني أختك ... كان حب شخص أقل مني ليس جيدا بما فيه الكفاية، لطالما فكرت ماذا لو والدتي تزوجت بعلي بشكل عادي ألا يعني هذا أنه لما كان هناك وجود لرغد؟ لو اختلفت الاقدار ولو قليلا لكانت لنا نهاية مختلفة، الحب من طرف واحد أصعب شعور، أنت تقدم كل ما لديك لشخص ينظر لغيرك، أذهب للنوم، أضع رأسي على وسادتي ولسبب ما لا أستطيع النوم، لسبب ما أبقى أفكر ماذا لو أنت وأنا التقينا بطريق مختلف؟ أم أن كل الطرق لا تؤدي إليك؟ قررت التظاهر أن آلامي لا وجود لها، لكن ذلك لم يؤد إلا لمزيد من الوحشة لذا استمريت بالبحث عن كيفية أتجاوز ذلك، أنا أحبك وأنت تحب رغد، إياك والظن أنك كنت تعرفني جيدا معتقدا رؤيتك لكل جانب من شخصيتي، أنت فسرت كل ما فعلته من منطقك، بينما الحقيقة لا

صلة لها بذلك، أنت تراني كشخص لا يشبهني، أنت لا تعرفني أنت لا تعرف علياء ابنة علي.

– لماذا ظللت صامتة عن هذا طيلة حياتك؟

– هل تعتقد أن كل الناس مثلك لا يجدون مشكلة في الحديث عما يؤلمهم؟ في نقطة ما أدركت أن بقاءك بجانبي لا علاقة له بما أقدمه لك أو ما تعرفه عني إنما برغبتك، وأنا كنت ضد رغبتك ... أنت عرفتني أكثر من ثلاثين سنة ورغد لمدة شهر لكنك أتيت للصراخ علي بسببها محاولا خنقي ..

حاولت الكلام لكنها وضعت إصبعها على فمي وأسكتتني ثم وضعت رأسها على كتفي وطلبت مني أن نبقى على هذه الحال لبعض الوقت، بكت لساعات على كتفي دون أن يحرك أحد منا ساكنا، بقينا جالسين على أرضية منزلها عند الباب وكأن الوقت توقف في تلك اللحظة، بعد أن هدأت نوبتها قالت: «فلتحاول العيش سعيدا مع رغد».

خرجت من بيت علياء منهكا، صعدت إلى سيارتي وبكيت ... نعم بكيت مثل طفل صغير لساعات أخرى، توقعت كل أنواع الإجابات من علياء ... عن سبب نشرها رواية عن رغد ... ما عدا كوني أنا السبب، ظننتها تكره رغد لنشرها رواية أمها لكن اتضح أن ذلك لم يتوقف عند مذكرات جميلة، بل لأنها تغار من رغد بسببي ... أنا دمرت علاقة أختين ببعضهما ولا مجال لتصليحها.

لا أعرف كيف أصارح رغد بالحقيقة، أنا خائف من خسارتها... علياء قالت فلتعش معها بسعادة، لكنه من الواضح للغاية أنها تمر بمرحلة صعبة، مهما حصل سأضطر لخسارة إحداهما.

أقفلت على نفسي في البيت لأيام متجاهلا اتصالات الجميع .. المستشفى ... أمي ... مها ... رغد ... إلا علياء لم تتصل بي بعدها ...

الإقفال على نفسي لا طائل منه ولن يحل مشاكلي لكن في نفس الوقت لم أتمكن من إخبار رغد الحقيقة أو الخروج لمواجهة أحد ...

جرس بابي يرن ... نهضت متثاقلا لأرى من أتى ... مهلا ... ما الذي تفعله رغد هنا؟

١١

نهاية غير مألوفة.

فتحت الباب وطلبت منها الدخول، جلست لكن دون التطرق في الكلام بقيت فقط تنظر في أرجاء المنزل لوقت فسألتها ...

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- جئت لأطلب الانفصال عنك ...

- ماذا؟ لما فجأة؟ ما الذي حصل؟

- ليست فجأة يا أدهم وأنت أدرى بذلك، أتت علياء للتحدث معي قبل أيام واعترفت لي بكل شيء ... الأمر لا يتوقف عندها فأنا لا أهتم إن كتبت هي الرواية أم غيرها، أمي ترفض علاقتنا كذلك، ووالديك لا يرحبان بي ... إلى ماذا تظن أن هذا قد يقودنا؟

- إذا أنت قررت الاستسلام؟

- لست أستسلم يا أدهم أنا أتقبل الواقع، أنا تجاوزت الثلاثين لا

وقت لدي لأضيعه في علاقة لا أمل فيها، ولن أستطيع أبدا أن أغفر لعلياء، صحيح أني أخطأت بنشر مذكرات والدتها لكن كان ذلك على غفلة مني بينما هي عرفت نقاط ضعفي واستعملتها ضدي عن قصد لذا لن أسامحها ...

- إذا لن أجبرك على البقاء معي، أنا لن أقول أتمنى لك السعادة مع رجل أفضل مني، لأن هذا سيكون كذبا ... سأقول أتمنى ألا نرى بعضا مجددا حتى لا تضعف مشاعري ...

- سيكون هذا من الأفضل لكلينا، إذا أنا سأرحل ... فلتعتبر ما مررنا به مجرد فصل من رواية عابرة وجدتها على أحد رفوف الكتب.

- سأحاول ذلك، إلى اللقاء إذا ..

خرجت دون تمكني من إخبارها أني أرغب بإيصالها لمنزلها للمرة الأخيرة، لكن هذه المرة يبدو أنها أتت بسيارتها ... ما زلت أراقبها كالأحمق من النافذة ... أنا لن أنسى طيلة ما حييت نظراتها الأخيرة الباردة تجاهي وطلبها الانفصال عني بدون تردد ... هي قالتها دون أن يرف لها جفن، لا أعرف ما الذي عانته أو مرت به لتتشجع للمجيء إلي وإخباري ذلك لكنه لا يزال مؤلما ... الرجل الذي يحب فتاة لن تكون من نصيبه لن ينساها أبدا.

بدأت قصة حبي مع بداية الربيع وانتهت مع انتهائه، فهمت قليلا قرار جميلة بالزواج من كريم وإكمال حياتها معه مستسلمة لقرار والدها، هذا كله لأن علي لم يكن مستعدا لفعل المستحيل من أجلها ... لذا انتهت بتقبل واقعها.

لكن لماذا أشعر بالراحة في قلبي بالرغم من انفصالي للتو عمن أحب؟ بالنظر للأمر هي محقة هذا أفضل لكلينا ولعائلتينا اللتان شاءتا

أن تكونا عدوتين منذ الأزل.

نمت لعدة ساعات ثم استيقظت اليوم التالي لأكمل حياتي كما عهدتها ... لست بخير لكن سأحاول أن أكون كذلك.

قمت بتنظيف البيت، فالنظافة تساعد الشخص على الاسترخاء، قمت بتغيير قفل الباب، جمعت كل روايات رؤى التي عندي ومنحتهم لابنة الجيران التي تحب المطالعة كانت سعيدة جدا بالهدية، طبخت بعض الكعك ووزعته على أطفال الحي الذين اعتادوا الشجار واللعب معا أكلوه بفرحة رغم مذاقه السيء الذي حاولت تغطيته بإضافة الكثير من الشكولاتة، رأيت صاحب المنزل الكبير يتشاجر مع أولاده مجددا فساهمت في فك الشجار، حان الوقت ليتعلم الإبقاء على خصوصيات منزله سرا.

ذهبت للمستشفى واعتذرت للجميع عن استهتاري في الأيام الأخيرة، زرت جميع مرضاي وعوضتهم بقضاء الوقت معهم بما أن معظمهم اعتاد أن يشتكي لي عن حياته الشخصية أكثر من مرضه كان لديهم الكثير ليحدثوني بشأنه، هل يجب علي التغيير للطب النفسي؟

جلست مع مها ورويت لها ما حصل من أكشن في أيامي الأخيرة، فأسفت لحالي كثيرا وواستني في شأن انفصالي عن رغد، فهي مرت بتجربتي وتفهم مشاعري ... لا يوجد شخص يستطيع فهم ألم الانفصال إلا شخص مر بنفس التجربة.

زرت علياء في عملها بعد شراء كعك اسفنجي لها ... لا يوجد طريقة أفضل من الطعام إذا حاولت العودة للتحدث مع أحدهم، تفاجأت لرؤيتي لكنها حاولت التصرف على طبيعتها مثلما فعلت، لم نتحدث عن رغد ولا عن ذلك اليوم، تصرفت كأن شيئا لم يكن

وجارتني هي في ذلك.

في نهاية اليوم ذهبت إلى والداي داعيا نفسي للعشاء دون إذن، مثلما فعلت مع علياء تماما تصرفت كأن شيئا لم يكن، جربت أمي التطرق للموضوع لكن أبي حاول إسكاتها كلما نطقت حتى توقفت عن ذكر رغد، ثم غيرت الموضوع للتحدث عن الزواج التقليدي من جديد، ما زالت ترغب في تزويجي من قريبتي لكني رفضت بوضوح هذه المرة، «حين يحين الوقت للزواج سأتزوج يا أمي» هذا ما قلته.

بعد أشهر بدأت حياتي تعود لمجراها الطبيعي وتتحسن أو هذا ما أقنعت نفسي به، تمكنت من فتح عيادتي الخاصة لكن ما زلت أعمل في المستشفى كجراح، وعلياء طلب يدها ابن صاحب البيت الكبير وأخيرا، كدت أموت في مكانه قبل أن يفعل شيئا ... علياء بعد تفكير ومحاولة إقناع مني ومن والدتي قبلت الزواج منه، هي ستترك العمل ... خبر صادم صحيح؟ نعم علياء قررت الزواج من رجل غني والتحول لربة بيت، هذا أفضل من الجري في الأنحاء كل يوم لإمساك المجرمين.

سمعت أن رغد ستتزوج الأسبوع القادم كذلك من صاحب دار النشر التي اعتادت نشر رواياتها بها، كما نشرت رواية جديدة باسم رغد وليس رؤى ... هي ستبدأ من جديد لكن هذه المرة لم أقرأ روايتها ولن أقرأها.

في الواقع ليست رغد وعلياء الوحيدتان اللتان ستتزوجان، أنا أيضا سأذهب للقاء والد مها، لم أرغب في ظلمها بداية بطلب يدها بينما لم أنس رغد، فسألتها بكل نزاهة إن كانت ترغب الزواج بي ... هي لم تنس حبيبها السابق كذلك، «لكن إن كنا سنمنع أنفسنا من إكمال حياتنا بسبب من تركونا هل سنتمكن من العيش؟»، هذا ما قالته

عندما سألتها، تعجبني ردودها كالعادة، لذا قلت لها بصريح العبارة...

- لنتزوج يا مها

- فلنداوي جراحنا معا يا أدهم.

وصل عرس علياء، هي سعيدة وتحضر لكل شيء بابتهاج ومن قلبها، كلنا ادعينا أن شيئا لم يحصل وكنا بارعين للغاية في ذلك ... بدت جميلة في فستانها الأبيض .. التقطنا معا الكثير من الصور ... هديتي لزواجها هي فتح مخبزة لها، أعلم أن الجلوس في البيت لا يناسبها، وقد حان الوقت لتشارك وصفة كعكها الاسفنجي للعالم.

مها حضرت العرس أيضا والجميع مدحها لأخلاقها وجمالها وبدأت كل السيدات في سؤال أمي إن كانت لها أخت، فليس من العدل أن يكون من نصيبها وحدها زوجة ابن كهذه، استغلت أمي الوضع وبدأت بالتفاخر بها أمام النساء، فرحت كثيرا عندما سمعت بذلك، إذن أمي تعجبها مها.

عرسي أنا ومها لم يكن أقل روعة من عرس علياء، لا توجد كلمات قد ترقى لوصف جمال مها في ثوبها الأبيض، ما زادها سعادة هو حضور والدتها لعرسها بعد مضي مدة طويلة جدا على عدم لقائهما.

عرفت مها في أشد أيام حياتي سوءا لكن لم أتوقع زواجي منها يوما، ولا هي توقعت ذلك، حظيت بعلاقتين لم تدوما طويلا وكلتاهما انتهت بشكل مأساوي، بينما حظيت مها قبلي بعلاقة واحدة دامت طويلا لكن ليس للأبد.

زواجي من مها ليس لنسيان رغد، فمن الخطأ الدخول في علاقة لنسيان شخص آخر فحتى لو نجحت العلاقة ستبقى طريقة بدئها

خاطئة وتذكرك بنفسك القديمة، أنا اخترت مها لأنها شخص يمكن الاعتماد عليه في أشد الأيام حزنا وفي أكثر الليالي بؤسا، تستمع لك عندما يغلق الآخرون أذانهم وتبتسم لك عندما تظن أنك تمر بيوم سيء.

على كل حال لم نشترك أنا ومها في تجربة الانفصال المؤلم فقط، بل تشاركنا تجارب مهنة الطب ودراستها، التي لن يفهم الكثير صعابها، جربنا ألم موت مريض لنا، تعاهدنا أن ننقذ المزيد معا، تعلمنا من بعض أنه بمشاركة مشاكلنا وأحزاننا مع بعض ستصبح أصغر، لأن اثنين أقوى من واحد دائما.

عشت مع مها حياة هانئة، فهي امرأة صادقة، هادئة وقليلة الغضب، اشترينا منزلا جديدا في إحدى الأزقة الهادئة القريبة من المستشفى وعيادتي في نفس الوقت ... كل الجيران لطفاء معنا.

حضينا بطفلنا الأول بعد سنة من الزواج ... ولد مع ابنة علياء في نفس السنة، علياء تطالب بتزويجهما منذ الآن رغم كبر ابنتها بالأشهر.

أما أنا شفيت تماما بعد ولادة طفلي، لم يعد يخفق قلبي عندما أسمع أحدهم ينادي باسم رغد في الشارع، بل التفت إذا سمعت اسم مها ... لم أعد مهتما بقراءة جديدها من الروايات، صرت أفضل قراءة قصص الأطفال لابني قبل أن ينام والأفضل أني نسيت تفاصيل وجهها ...

أحيانا قد ننزعج مما يحصل في حياتنا ونلوم أنفسنا والعالم على ما رمانا إليه القدر، لكن ربما كل ذلك تنبيهات أنك في الطريق الخطأ لذا عليك مراجعة نفسك ورؤية ما يكون في صالحك من زاوية أوسع ... إذا فشلت في دراستك ربما لم يكن ذلك التخصص الذي خلقت من أجله لذا فلتعمل بجد لإيجاد ما تحب، إذا انفصلت عن حبيبتك

لا بأس ربما من المقدر لكما العيش بسعادة مع شخصين آخرين، إذا مررت بتجربة قاسية فلتعتبرها فرصة لتصبح أقوى.

هكذا أكملت حياتي ونسيت أن أنسى.